رواية

محمد خير

أوراق الشيطان

دار اكتب

أوراق الشيطان

محمد خير

رواية

دار اكتب للنشر والتوزيع

أوراق الشيطان
محمد خير
تصميم الغلاف: محمد عيد
تدقيق لغوي: محمد السمالوسي
رقم الإيداع:2868/ 2015
I.S.B.N: 978-977-488-349-1

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،
المرج الغربية، القاهرة.
المدير العام: يحيى هاشم
هاتف: 01144552557 – 01147633268
E – mail:daroktob1@yahoo.com
Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2015م
جميع الحقوق محفوظة©
دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى زوجتي العزيزة..

فلولاكِ ما كنتُ كتبتُ حرفاً

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

"واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الأخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لوكانوا يعلمون "

صدق الله العظيم

" اصحوا واسهروا.لأن إبليس خصمكم كأسد زائر.يجول ملتمساً من يبتلعه هو"

(رسالة بطرس الرسول الأولى 5: 8)

(اقتل ما رغبت في ذلك،وامنع البقرة من إدرار اللبن،واجعل الآخرين غير قادرين على الإنجاب،واقتل الأجنة في بطون أمهاتهم،واشربوا دم الصغار،واصنعوا منه حساءً،واخبزوا في الأفران لحومهم،واصنعوا من عظامهم أدوات للتعذيب)

أنطون لافي..ساحر أمريكي

1

لاشك أن (عماد) يملك قلباً من حديد..

وإلا فكيف يستطيع شخص عاقلاً ومحتفظاً بكامل أعصابه وقواه العقلية،أن يقف وسط هذه الأرض الخراب بعد منتصف الليل بساعة تقريباً في هذه الليلة المقمرة، عارياً تماماً من ملابسه يقوم بأفعال هيستيرية وينادي بأعلى صوته وهو يقفز داخل دائرة كبيرة صنعها على الرمال، يوجد على محيطها وداخلها وخارجها رموز وطلاسم، بينما يقبض بكلتا يديه على شمعتين، ويتلوتعاويذ وأناشيد شيطانية، أمام ذلك الإناء الذي يضعه أرضاً وبداخله حبوب نباتية غريبة..

إن هذه طريقة فعالة لجلب الشيطان، أما عن السبب فهو أن (عماد) صار يكره البشر، ولو أن كل شخص كره البشر فعل مثل (عماد) لما صار هناك موضع قدم لبشري واحد على الأرض..

لقد كره زيف البشر ومداهنتهم وتبسمهم في وجهك بينما من داخلهم يضمرون لك الشر والحقد، كره تقيد الإنسان بالحضارة التي تجعله يكبت داخله كل مظاهر الهمجية والتوحش، بينما يمارسها علانية كل من لا يتقيد بدين أو بقانون..

إن الإنسان لا يفعل الخطيئة؛ لأنه يعلم أن هناك قانوناً يردعه أو أن هناك ديناً يحكمه، لكن ماذا أن لم يكن هناك قانون أو لم يتحل الشخص بالإيمان اللازم؟ وقتها ستخرج كل الطاقات السلبية والنوازع المكتوبة بداخله، سيطفوالشيطان الكامن بداخله..

أليست النفس أمارة بالسوء؟!!

مهما كان الدافع فإن (عماد) اختار طريقه وما يحدث أمامه الآن لا يدع مجالاً للشك أنه بدأ في النجاح بمهمته..

ذلك الجو المشحون بالكهرباء والذي جعل شعر جسمه كله ينتصب.. تلك القشعريرة التي سرت في عموده الفقري وكيانه كله.. أنفاسه اللاهثة ودقات قلبه التي تكاد تمزق صدره.. ذلك الغبار الذي يبدو له من بعيد كأن هناك خيولاً تركض ناحيته..

إنه يستمر في عمل هذه الطقوس لثلاثة أيام متتالية، ولكن هذا هو اليوم الوحيد الذي بدأ يحدث فيه تغيير، لاشك أنه اليوم الموعود..

اليوم الذي سيغير حياة (عماد) إلى الأبد..

اليوم الذي بدأ يتشكل الدخان أمامه إلى صورة مهزوزة في البداية، ثم أمام عينه الجاحظة المبهورة صارت الصورة واضحة تماماً..

برغم كل الظلام الذي حوله..برغم مما كان يتوقعه..

فإن (عماد) كان متأكداً أن مندوب الشيطان يقف أمامه الآن..

هل هناك مخلوق من نار غيره؟!!

كان على هيئة حيوانية بنصفه السفلي حيث كانت هناك حوافر بدلاً من أصابع قدميه،طوله يتجاوز المترين بكثير،نصفه العلوي بشري إلا من عينيه المشقوقة طولياً،والقرنين اللذين ينبتان من رأسه الأصلع..

يقف أمامه صامتاً لثوانٍ بدت أشبه بالدهر له يتأمله بعينيه المشقوقتين..

وتكلم المندوب الشيطاني:

– ماذا تريد أيها الإنسي؟

ابتلع (عماد) لعابه الجاف وحاول السيطرة على يده المرتجفة بلا انقطاع وهو يجيبه:

– عاوز القوة والسيطرة عاوز أبقى ساحر.

– إن ثمنها باهظ للغاية أيها الإنسي.

يقول (عماد) بسرعة ولهفة:

– أنا مستعد لأي حاجة ومستعد لتنفيذ كل طلباتك.

– إن من يدخل مملكتنا لا يستطيع الخروج منها إلا بالموت.

– أنا زهقت وقرفت من عالم البشر ومش عاوز أرجع له مرة تانيه.

يهز المندوب رأسه معلناً عن رضاه لرغبة هذا البشري في دخول مملكتهم الشيطانية، ويقول له:

– حسناً أيها الإنسي سأعرض الأمر على حاكم الجماعة وسوف نلتقي هنا في نفس المكان بعد ثلاث ليال.

يمط (عماد) شفتيه اعتراضاً،ويقول:

– لكن.

ولكن الشيطان يبتدره قائلاً:

– إياك والاعتراض أو حتى إظهاره هذا هو أهم قوانين مملكتنا.. الطاعة العمياء.

يخفض عماد عينيه ويقول بمنتهى الذلة والمسكنة:

– أمرك.

يبتسم الشيطان ابتسامة شيطانية مثله وتبدأ صورته في التلاشي ويحل الغبار مكانه وهويقول:

– بعد ثلاث ليال.

***

– كنت فين امبارح يا بن ال.....؟

انطلق الصراخ الهادر وسط موقف سيارات نقل الأجرة، وانتفض جسد (شحاتة) كمن مسه تيار كهربي، وهويستعد لركوب سيارته التي امتلأت عن آخرها بالركاب، وقبل أن يستدير لمواجهة القادم. كانت الكف الغليظة تنهال بضربة على قفاه، بينما اليد الأخرى تجذبه من كتفه، ولم يشعر بنفسه إلا وهويستدير لمواجهة (بسيوني) وأنفاسه

الكريهة تفعم وجهه وهويقول له من وسط أنيابه:

– فاكر انك هاتقدر تهرب مني؟

يظن الكثيرون أن (بسيوني) أمين الشرطة في ذلك الحي الشعبي من أحياء (القاهرة)، هو المادة الخام التي أخذ منها كل أوغاد البشرية صفاتهم..

والحقيقة أنهم غير مخطئين كثيراً في رأيهم، فحتى الضباط في ذلك القسم بل والمأمور نفسه يحاولون تجنبه وعدم إثارة غضبه أو الاحتكاك به..

فـ (بسيوني) يكاد يبلغ المترين طولاً وله كرش فخيم يتدلى أمامه. لكنه لا يمنعه من سرعة الحركة، أو تسديد الصفعات واللكمات بسرعة خرافية يغار منها (كلاي) نفسه، يحمل شارباً كثاً على وجهه يليق بملامحه الغليظة..

وهو عصبي المزاج، قصير الفتيل، غليظ القلب، سليط اللسان، لا يتورع عن سحق أي شخص إذا وجه له كلمة لم ترق له، صحيح أنه لا يستخدم مسدسه إلا نادراً، لكن أشخاصاً كثيرون وجدوا أنه من الرحمة أن يستخدم مسدسه بدلاً من كفه الغليظة التي إذا هوت على وجه أحدهم، فإنها تصيبه بالصمم المؤقت والعمى اللحظي..

باختصار كان (بسيوني) يستعمل كل سلطاته التي كفلها له قانون الطوارئ والتي لم يكفلها أيضاً جعل حياة أهل ذلك الحي جحيماً..

السيطرة والقوة الغاشمة.. هل هناك إحساس أمتع من هذا؟

أن ترى نظرة الذعر في عيني شخص وهو يتوسل إليك أن ترحمه.. أن تعلم أن إشارة منك تحدد مصير أحدهم.. أن تنقض الأنفاس لدى دخولك أي مكان.. أن يعمل لك الجميع ألف حساب.. أن يرهبك الكبير والصغير ولا يجرؤ أحد منهم على مجادلتك.. أن لا يجاسرك أحد على إبداء ذاك أو هذا عرض ذلك أو حتى قتله..

إن الحياة لا تمنح القوة إلا لمن يستحقها و(بسيوني) يؤمن بهذا ويطبقه على أكمل وجه.

– فين الفلوس يابن ال....؟

قبل أن يجيب (شحاتة) كانت ساق (بسيوني) الشبيهة بعامود إنارة تركله في معدته، فشهق طالباً للهواء، بينما (بسيوني) يجذبه من كتفيه ويدني وجهه منه، وقد حمله من على الأرض حملاً، بينما باقي السائقين يحاولون الاقتراب لفض الخلاف وهم مترددون، فاستدار لهم وهو لا يزال ممسكاً بفريسته، وأطلق عليهم وابلاً من السباب منبياً إياه قائلاً:

– كل واحد يخليه في حاله يا....أمك منك ليه.

ثم استدار إلى المسكين وزمجر قائلاً:

– لسه ما اتخلقش اللي يشغلني، امبارح كان أول الشهر، والناس كلها بتدفعلي الاتاوه، وما شوفتش وش اهلك ده هنا..شكلك عاوز تروح (السلخانة).

لم يكد يأتي على ذكر هذا الاسم حتى اتسعت عينا (شحاتة) ذعراً

عن ذي قبل.وهتف باكياً:

– هدفع حالا والله ياباشا الفلوس معايا هنا.

– عشان ماتعمليناش مر....

فوجيء (شحاتة) بـ(بسيوني) يبتر عبارته، وقبضته تتراخي عن باقيه وبصره يبتعد عنه إلى ما ورائه، ثم أزاحه جانباً بحركة سريعة، ليطير (شحاتة) ويرتطم باحدى السيارات، بينما تجاهله (بسيوني)تماماً، وكأنه انفصل عن العالم، وانصرف بكيانه كله إلى المرأة التي أطارت النوم من عينه..

إلى (وفاء).

***

الحب من أول نظرة...

لقد قرأ (عمر) كثيراً عنه،وشاهده في معظم الأفلام والمسلسلات، وكالعادة منه واعتبره موضوع سحري لإنجاح أي فيلم أومسلسل، كشيء يناسب طبيعة المصريين العاطفية، أو حتى مداعبة أحلام الفتيان والفتيات العاجزين عن الحب وسط معترك الحياة، الذي لا يكاد يترك أحدهم يلتقط أنفاسه، بل يلهث وراء السراب في دائرة لا تنتهي.. لكن أن يحدث هذا معه هو بالذات، فهو ما لم يكن يتصوره في أجمل أحلامه..

إنه لا يعرف أصلاً كيف يستطيع الناس أن يروا (نوال) هكذا ولا يلعنون في حبها؟!

هاتان العينان العسليتان اللتان تنقلانك إلى عالم لم يخلق بعد لا مكان فيه للبشر بل لمخلوقات أسمى من ذلك..

ذلك الشعر الأسود الحريري الذي تعقصه كذيل حصان، والذي يتمنى أن يسبح في شلاله، ويقفز منه إلى جيدها الأبيض المشرب بالحمرة، ويزلق إلى خدودها ذات الغمازتين اللتين أطارتا عقله، ثم يستقر في شفتين مكتنزتين كحبتين فراولة ناضجتين تنتظر من يقتطفهما..

ورغم ثيابها المحتشمة التي تكشف بالكاد عن تفاصيل جسدها، لكن من الواضح أنها تمتلك قواماً بديعاً، يتيه الشعراء في وصفه.. وذلك الحياء الطبيعي الذي يجعلها تنظر دائماً للأرض.. ورغم أن الكتاب الذي تضمه إلى صدرها يجعل منظرها يكاد يكون جدياً، إلا أنه يمنحها سحراً خاصاً جعل نصف شباب الحي أن لم يكن كلهم يتمنون أن يكونوا مكانه..

إن هذه فعلاً أول مرة يراها فيها (عمر) منذ أن انتقل للعمل في تلك الورشة، التي يملكها خاله بعيداً عن الحي الذي يقطن فيه، لكن دقات قلبه وجفاف حلقه واضطرابه كلياً، جعله يدرك أن شيئاً عنيفاً وقع داخله..

شيئاً جعله يتابعها بخطواتها الرقيقة، إلى أن أفسد المنظر ذلك الشاب اللزج، الذي كان يسير وراءها ويرمقها بنظرات غير بريئة، وهو يقول بصوت عابث:

– إيه يا عسل ما تحن شويه علينا.

لم تجبه وكأنها لم تسمعه وواصلت طريقها، وهي تضم الكتاب أكثر إلى صدرها. فاقترب الوغد أكثر منها وهو يتابع:

– أموت أنا وأعيد السنة.

لم يدر (عمر) بنفسه إزاء ذلك المنظر إلا والدماء تفور في عروقه، تاركاً ورشته؛ مما جعل الصبي الصغير الذي يعمل معه يقول مستنكراً:

– رايح فين يا أسطى؟

لم يعره (عمر)انتباهاً، وهو يعدو وراء ذلك الشاب، الذي كاد أن يلامس (نوال) التي كانت تحاول الإسراع بخطواتها دون النظر خلفها، والوغد يواصل:

– طب تتجوزيني و.....

لم يكمل عبارته لأنه وجد يداً قوية تجذبه من كتفه، وصاحبها يقول:

– ما تحترم نفسك يلا.

التفت الشاب إلى (عمر) وهو يزيح يده من على كتفه بحركة عنيفة وهو يزمجر:

– وأنت مالك انت؟..ما تخليك ف حالك.

هدأت (نوال) من خطواتها، وهي تختلس النظر لما يحدث خلفها. ووجدت (عمر) يهوي بلكمة على فك الشاب، الذي ترنح لحظة وحاول استعادة توازنه ليبادله اللكمات. ولكن (عمر) لم يترك له

فرصة ليهوي عليه بلكمة أخرى، جعلت الدماء تنبثق من شفتي الشاب، الذي شعر بغمامة تدور حول رأسه، و(عمر) يقول له:

– مش عاوز أشوف وشك هنا تاني..فاهم؟

لاح شبح ابتسامة ممتنة على شفتي (نوال) وهي تجد الشاب يبتعد عن (عمر) ويكيل له السباب متوعداً كعادة من يخسر في هذه الشجارات القصيرة، بينما يرمقه الأخير بنظرة متوعدة، وفكرت للحظة أن تذهب لتشكره على تصرفه النبيل، لكنها فوجئت به يلتقط شيئاً من على الأرض، ويقترب منها وهو يمد يده إليها به، وهو يهتف بها:

– يا آنسة.

التفتت إليه متسائلة، ووجدته يناولها القلم بيد ترتعش انفعالاً قائلاً وهو ينظر في عينيها:

– القلم وقع منك.

لم تكد عيناه تلتقي بعينيها، حتى أدرك أنه غرق، وأنه سيتخذ مكاناً مميزاً بجوار (قيس بن الملوح) و(عنترة بن شداد)..أما هي فقد فوجئت لثوانٍ بذلك الشخص الذي تراه لأول مرة في الحي، وتأملته لبرهة..

فـ(عمر) كان متوسط القامة، وسيم الملامح إلى حد ما، يمتلك ملامح سمراء رجولية فرعونية، بينما يظهر تكوينه العضلي الجيد من تحت ملابسه التي بلونها الشحم نحكم عمله في الورشة. وعيناه

السوداوان تنظران إليها بطريقة غريبة مفتحمة، جعلتها تخفض عينها وهي تلتقط القلم منه قائلة:

– شكرًا يا أستاذ..

– (عمر)..تقدري تقولي ,عمر).

احمر وجهها خجلاً كاد يفقده صوابه، وقد زادت الحمرة وجهها جمالاً وجاذبية، بينما هي تلتفت للعودة إلى طريقها قائلة:

– أنا متشكرة قوي يا أستاذ (عمر).

ثم تركته وابتعدت في خطوات سريعة، بينما ظل هو واقفاً يلهث من شدة ضربات قلبه، ويتابعها ببصره حتى اختفت في أحد الأزقة..

وقتها أدرك أن حياته لن تغدوكما كانت أبداً..

ولم يكن يدري كم كان محقاً.

***

2

لم يكن (عماد) ملحداً، ولم يكن هناك أي مبرر حقيقي لما ينوي فعله، لكنه كذلك لم يكن قوي الإيمان أو حتى يهتم بتعاليم دينه..

كان يريد أن يكون شخصاً مختلفاً، وربما أن ليس هناك من أحد يهتم به، فقد قرر أن يكون ساحراً.. ربما ليهتم به الناس.. ربما لأنه يريد خوض حياة وتجربة جديدتين..

أيًا كانت الأسباب فقد صار الأمر واقعاً الآن بعد سنوات طوال قضاها وسط كتب السحر والشعوذة الصفراء، وبعد تجارب ومحاولات بسيطة في البداية..

أنه يقف الآن في نفس المكان الذي قابل فيه مندوب الشيطان أول مرة، وكل خلية في جسده ترتجف انفعالاً وتوتراً..

ويجيء المندوب، وهويبتسم ابتسامة شيطانية بطبيعة الحال يقول له:

– مرحى أيها الإنسي لقد وافق حاكم الجماعة المتخصص في

ترسيم السحرة على طلبك.

يلهث (عماد) انفعالاً وهو لا يكاد يصدق ما سمعه، بينما يقول له الإبليسي:

-هيا..سأحملك إلى المكان المخصص لتعميدك كساحر، اغمض عينيك ولا تفتحهما وإلا سينالك الأذى حتى أأمرك بفتحهما.

يقول عماد بكل حماسة وخضوع:

-سمعاً وطاعة.

يغمض (عماد) عينيه،ويشعر بالشيطان يقترب منه ثم يحيطه بما يشبه الجناحين، يبدأ جسده في الطيران، ويدرك أن هناك قوة هائلة تحركه لكنه لا يجرؤ على فتح عينيه، حتى يشعر بجسده يستقر على الأرض، بينما يقول له الشيطان:

-افتحهما الآن.

ويفتح (عماد) عينيه..

لو أنه تذكر أبشع وأكثر كوابيسه ماكان ليصف ماهوأمامه..

إنه يقف تقريباً وسط الجحيم!

وإلا كيف يستطيع أن يصف هذا المكان المقفر الموحش القذر، الذي بدا له كما لو كان داخل وادي واسع تحيط به الجبال، يمتلأ بشياطين على هيئة بشرية أو على شكل حيوانات، تشتعل النار في أركانه وتفعم الرائحة الكريهة الأنوف فيه، بينما ينتشر بشر أخرون أغلب الظن أنهم سحرة ضلوا الطريق من قبله في المكان أيضاً..

أما هذا العرش الهائل الماثل أمامه فكان يجلس عليه الحاكم الشيطاني لهذا المكان، لابد أنهم يختارون أكثرهم بشاعة وهيبة بغض النظر عن شيطنته..

لم يستطع (عماد) النطق بكلمة وقلبه يكاد يمزق ضلوعه من شدة خفقانه، وحلقه جاف كالصخر، يقف مرتجفاً أمام العرش، بينما يقول له الحاكم بصوت رهيب:

– أهلًا بك أيها الإنسي في مملكتنا..هل لازلت ترغب في القوة؟

استجمع (عماد) ما تبقى له من إرادة ورباطة جأش ورد قائلاً:

-أكيد..ده قرار فماني مفيهوش رجوع.

يقول الحاكم:

– سيكون الثمن باهظاً وليس هنالك فرصة للتراجع.

يرد (عماد):

بكل عزم وتصميم:

– عارف كده وأنا مستعد له.

يبتسم الحاكم معلناً عن رضاه ويقول بصوت جهوري:

-إذن فلتبدأ مراسم التعميد.

لن أطيل كثيراً في وصف ما فعله (عماد)، لكن يمكن تخيله بشيء من الجهد..

توقع ما يمكن أن يفعله كل كافر ملحد بأي كتاب أنزل من

السماء، كان الأمر بشعاً فعلاً ويفوق الوصف..

تخيل أن تكون أمامه كل الكتب المقدسة، ويفعل بها ما يفعله أي حيوان لا يعقل أو يفهم..

أن يستعمل أبشع الألفاظ والشتائم لسب كل الأنبياء والرسل..

أن يصرخ بأعلى صوته متبرئاً من كل الأديان السماوية، وأن يعلن بربوبية إبليس..

أن يمرغ وجهه بالتراب ويتعطف على الحاكم أن يضمه لمملكة النار، بينما يقوم الحاكم بركل وجهه حتى تسيل منه الدماء وتختلط بالتراب،ويبصق عليه الحاكم بصقة شيطانية تلتصق بجسده للأبد، وهذه العلامة لابد أن تكون موجودة لدى أي ساحر في أي جزء من جسده..

أن يقوم الحاكم بإحضار أحد الطيور التي تنتشر في المكان، ثم يتلو عليه بعض التعاويذ فينقلب الطير إلى صبي صغير أمام عيني (عماد) الميهورتين، الذي كان يعرف ما سيحدث بعد ذلك..

يأمر الحاكم (عماد) أن يقوم بذبح هذا الطفل، يجد خنجراً عتيقاً غريب الشكل على صخرة أمامه، يمسك بالخنجر بينما يمسك اثنان من الشياطين بذلك الصبي، يضعون رأسه على هذه الصخرة التي تقع تحت عرش الحاكم، ينتظر الكل ما سيفعله البشري الخاطيء، يقترب (عماد) من الغلام، بينما يقول له الحاكم:

– قم بالتسمية باسم إبليس.

ينطقها (عماد) ويده تبدو أكثر ثباتاً، يرفع رأس الصبي الذي كان ينظر إليه مستسلماً، ويفعلها وسط تهليل واستحسان باقي السحرة، ينحر الصبي لتتدفق الدماء غزيرة منه وهو يطلق صوتاً متحشرجاً، ثم يأمره الحاكم أن يلوث بدم هذا الصبي الأماكن الحساسة من جسده، يخلع (عماد) بنطاله ويقوم بتنفيذ ما يطلبه منه الحاكم، يشعر بالدماء الساخنة التي لازالت تسيل منه وهي تلمس أعضاءه..

لو كان في حالته الطبيعية لأدرك كم الجنون الذي يحدث الآن، لكنه فعلاً كان يشعر أنه مندمج تماماً في هذا الجو الشيطاني البغيض، حتى إذا نزفت دماء الطفل كلها ألقوه في وعاء كبير تشتعل النيران من أسفله، وتتصاعد الأبخرة الكريهة من مياهه التي تغلي، ليطهوه كالدجاج مع باقي الأضحيات الموجودة به، والتي أتى بها السحرة لالتهامها في هذه الليلة الميمونة..

وفي النهاية يبتسم الحاكم والشياطين والسحرة الآخرين من حوله، وقد أدركوا أنهم قد انتصروا في معركة جديدة من المعارك الأزلية بين بني آدم والشياطين، بعد أن ضموا إليهم أحد الآثمين الذين سيسعون في الأرض فساداً، ويقول له الحاكم ناظراً إلى ما تبقى من بشرية (عماد):

– لقد نجحت في الاختبار..والآن سيتم تعميدك كساحر.

يهلل الشياطين فرحاً، بينما لا يكاد (عماد) يصدق أن حياته السابقة صارت من الماضي، وأنه على أعتاب حياة جديدة..

تدق طبول الفرح ويهلل الجميع فرحاً مرة أخرى، وتتكرر مراسم

تحقير الأديان وشتم الأنبياء والرسل لتأكيد خضوعه الكامل، بينما يصفق له الحضور ويشجعونه حتى يأمره الحاكم:

– والآن اسجد لي.

تحتبس الأنفاس ترقباً، بينما يدرك (عماد) أنه لابد وأن يمضي في طريقه إلى النهاية..

تمر حياته كاملة أمام عينيه في لمح البصر، حياته التي غدت من الماضي في هذه اللحظة..

ويسجد (عماد).

وهنا يجد الحاكم أنه من الواجب أن يحصل (عماد) على مكافأة جراء هذا، فيأمر جميع السحرة من الرجال والنساء بشرب الخمور، والتعري وممارسة الزنا الجماعي في مملكة الجحيم علانية..

تدق الطبول، ويغرق (عماد) حتى أذنيه في مستنقع الفاحشة والضلال، يخلع ملابسه كما ولدته أمه هو والجميع من حوله من رجال ونساء، تقترب منه امرأتان، تنحبس أنفاسه من فرط الشهوة واللذة وهو يحدق في جسديهما المرمريين وقوامهما البديع وملامحهما الجميلة، قبل أن يفترشوا الأرض سوياً لممارسة الجنس بمنتهى العنف والشبق كما الجميع حولهم، ويرقص الشياطين طرباً بينما يشاهدون أبناء (آدم) عليه السلام، وهم يستعدون لمرافقتهم إلى الهاوية، تطرب أذانهم أصوات الآهات المليئة بالنشوة الصادرة منهم، ويمتع عيونهم ما يشاهدونه..

وبعد هذه الطقوس التي انتهى منها (عماد) بعد ساعة تقريباً، كانت فيها قواه قد وهنت يبدأ الحاكم في سرد القوانين وتلاوة العقد الذي سيوقع عليه (عماد) بدمه..

وعندها أدرك (عماد) أن الأمر لم يكن هيناً كما توقع..

لم يكن هيناً أبداً..

***

برغم بلوغها الثانية والثلاثين، وإنجابها لطفل وحيد، ووفاة زوجها منذ سنة أويزيد، إلا أن (وفاء) لا تزال محتفظة بجمالها واحترامها معاً..

لا يختلف اثنان على أن (وفاء) تعد امرأة جميلة، ذات قوام بديع، برغم ملابسها السوداء التي لا تزال ترتديها بعد رحيل زوجها ..لكن في نفس الوقت ورغم سكنها بمفردها مع ابنها (حسام) ، إلا أن جميع سكان المنطقة يشهدون لها بحسن خلقها، ولم يجدوا منها ما يعيب..

تذهب صباحاً لتوصل (حسام) ذي السابعة إلى مدرسته،ثم تستقل سيارة نقل الأجرة إلى عملها الحكومي،وعندما تنهي عملها تعرج مرة أخري إلى المدرسة لاصطحاب (حسام)إلى المنزل..

بالطبع أتت عروض كثيرة لـ(وفاء) للزواج مرة أخرى، هي لا تزال صغيرة ومحتفظة بجمالها ورونقها، لكن أحداً لم يكن يدرك مدى قوة حبها لزوجها الراحل، والحب الأكبر لولدها الذي طغي على أحاسيس جسدها البض الذي يطالبها بحقه، وعلى مشاعرها كأنثى تتمنى أن تكون تحت كنف رجل..

المهم أنها تجاهلت هذا الموضوع مؤقتاً إلى أن تتغلب على حزنها، وتستطيع توفير الاستقرار مؤقتاً لحياتها وحياة ابنها (حسام)..

ولكن دوام الحال من المحال..

لقد كانت تسكن لسوء حظها في منطقة يحكمها تقريباً وغد بشري..

وغد نمت قطعة خضراء صغيرة في وسط الصخر الذي يحيط بعالمه..

ومن وقت أن عرفها (بسيوني) وقد قرر أن تكون له..

صحيح أنه متزوج، لكن زوجته دائماً إما في بيت أهلها بعد مشادات كلامية، أو في المستشفي بعد مشادات يدوية من طرف واحد بالطبع، ثم أن هذه الأمور التافهة من وجهة نظره لن تعيقه عن الزواج مرة ثانية وثالثة ورابعة، ولا حتى عن ارتياد تلك البناية التي يملكها القواد (شلبي) ، والتي تعج بكل أنواع الفساد والانحلال..

المهم أن (بسيوني) عندما يقرر أمراً فلا رجعة فيه..

و(بسيوني) رغم غلظته ووحشيته، لكنه يعرف كيف يتعامل مع الصيد الذي يريده..

وقد فوجئت (وفاء) في ذلك اليوم، وهي تهم بالذهاب إلى عملها مستقلة سيارة نقل الأجرة، بينما تتخذ مقعدها بجوار النافذة، بأن الشمس قد غابت عن ناظريها، وهي تنظر من النافذة ليحل محلها جسد عملاق، فرفعت بصرها لتجد (بسيوني) بشاربه الكث، وملامحه

الغليظة، التي دب وسطها ابتسامة شقت طريقها بصعوبة في أخاديد وجهه، وهو يقول:

– أحلى صباح على أحلى عيون.

لم تنبس (وفاء) ببنت شفة، بل أشاحت بوجهها إلى الجهة المقابلة، بينما تمنت في سرها أن يستقل السائق العربة وينطلق بها، لكنه لظروف مفهومة لم يستقل العربة بعد، بينما يقول الوغد:

–أنا بس عاوز انول الرضا، ومستعد لأي طلبات يا قمر الزمان.

تزفر (وفاء) حنقاً، لكن (بسيوني) يستمر قائلاً:

– أنا مش برمي كلام ف الهوا.. أنا نيتي سليمة وعاوز أدخل البيت من بابه.

تتمنى (وفاء) أن تنشق الأرض وتبلعه، بينما يشير (بسيوني) إلى السائق إشارة خفية، وهو يقول :

– عامة أنا هسيبك تفكري ولما تخلصي تفكير أنا تحت أمرك.

يستقل السائق العربة فتنتهد (وفاء) في ارتياح، بينما يودعها الوغد قائلاً:

–ما تتأخريش في الرد عليا يا قمر.. وماتنسيش تسلميلي على اخروس إبنك.

انقبض قلب (وفاء) عند هذه النقطة، بينما بدأ السائق في الانطلاق، والتفتت إلى (بسيوني) لتجده يبتسم ابتسامة صفراء وهو

يلوّح لها بيده التي عانى منها أناس كثيرون..

وقتها علمت (وفاء) أن حياتها لن تسير بالهدوء التي كانت تتمناه..وأن أياماً عصيبة بحق تنتظرها..

***

منذ وعت عينا (هشام) على الدنيا في ذلك الملجأ، بعد أن تركته أيدي ملوثة بالعار أمام بابه في ليلة موحشة، وهو يعيش حياة غير طبيعية..

كيف يستطيع أن يصف سنوات الحرمان والألم والخوف في هذا المكان المقيض الكئيب..كيف يستطيع أن يتخيل أن هناك بشراً آخرين غير (سناء) مديرة الملجأ، التي تجردت من كل معاني الرحمة وتعاملهم كأنهم خراف صغيرة، وأن خطأ إلقائه أمام الملجأ هوالمتسبب فيه، وليس أحداً غيره..

الضرب والإهانة لسبب أو بدون سبب.. التعارك مع الأطفال الآخرين دائماً.. التعذيب بالحرق والصعق بالكهرباء أحياناً والعصا غالباً ثم الإلقاء في حجرة مظلمة بمفردك.. ساعات وأيام من الجوع والحرمان.. شلالات من الدموع سالت من عينيه لتغرق روحه وما بعد يوم.. لعنات صبها على الأيدي الآثمة التي جلبته للعالم وألقته في هذا الجحيم..

ثم في النهاية بعد أن بلغ الحادية عشر من عمره، قرر أن الوقت قد حان لترك هذا المكان البشع والسعي في أرض الله واكتشافها..

لم يدر أنه في سبيل عيش حياة قاسية أخري لكن بطريقة جديدة..

إن أطفال الشوارع يملئون الأرض، ولن يكون هوباستثناء منهم..

تبدأ حياته مع الأسطى (شوقي) في تلك الورشة، التي يقوم فيها بتصليح السيارات، لكن الاسطى (شوقي) كان له نشاط أخر بالليل.. نشاط يتعلق بشذوذه الجنسي رغم أنه رجل متزوج، مع كل الظروف التي أتاحت له هذا الأمر من وجود (هشام) معه.. في البداية استنكر (هشام) الأمر، لكن الاسطى أقنعه أنه لكي يتعلم فلابد أن يمتثل لأوامره..

وشيئاً فشيئاً بعد أن وازن الأمر في ذهنه، وجد أن هذا ثمناً عادلاً مقابل تعليمه، على الأقل فهو أفضل من حياته السابقة في الملجأ، ثم أن هذه ليست أول مرة يحدث بها هذا.. إن ليالي الملجأ كانت أحياناً تحفل بهذه الأمور القذرة..

المهم في النهاية أنه تحمل كل هذا واعتبره شيئاً طبيعياً، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه زوجة الاسطى الذي يحدث..

ودون الدخول في تفاصيل فإن الأمر انتهى بمشكلة كبيرة بينهما، وكان هوكالعادة المنتصر الأكبر بعد أن قذفته زوجة الاسطى بأحد أدوات الورشة، فأصابته في وجهه، وهو يحاول أن يرتدي بنطاله، لتصيبه بجرح قطعي في جبهته، قبل أن يفر هارباً من المكان..

كان (هشام) يبلغ الثالثة عشر من عمره وقتها، وقد قرّر أن يسلك مجالاً جديداً بعد هذه الذكري السيئة لعمله في الورشة..

لذلك فقد وقع اختياره على أحد المقاهي الشعبية..

أو لنقل أحد الأوكار بما تحمله من تجارة خفية لصنوف عدة من المخدرات، في ذلك الحي الشعبي..

فالمعلم (جودة) صاحب دنا الوكر لا يزال يحظى بالمهابة من أهل المنطقة، بصفته فتوة سابق وله صولات وجولات شهدت عليها الأحياء المجاورة أيضاً، قبل أن يتقدم في السن ويفتح هذا المقهى، الذي يعد بيع أصناف الحشيش والمخدرات هو تجارته الرئيسية..

ورغم صغر سنه لكن ما قاساه في حياته جعل بصيرته أكثر تفتحاً وعقله أكثر وعياً بما يدور حوله. بينما كف المعلم قموي على وجهه إذا تكاسل عن غسل الأكواب أو تنظيف المكان، وهو يختلس النظر إلى ذلك الباب الخفي وراء الطاولة التي يعدون عليها المشروبات، والتي يتسلل إليها الشباب الزائغ النظرات والرجال المخطمون، والذين يسري السم في رؤوسهم وعروقهم محولاً اياهم إلى أشباه بشر..

لكن الأمر الوحيد الجيد أن المعلم قد سمح له بالمبيت في المقهى ليلاً عندما يغلق، بدلاً من أن كان يقضيه تحت الجسور والكباري..

واستمر الحال على هذا المنوال فترة من الزمن، اعتبرها (هشام) أزهى فترات حياته، رغم الضرب الذي يتعرض له دائماً من المعلم أو حتى (مجدي) عامل القهوة الشاب، الذي يضع دائماً لفافة تبغ خلف أذنه، بينما يصيح بصوت حاد وهو يحمل صينية الأكواب:

– واحد شاي على ميه بيضا واتنين حلبة حصا.

حتى جاء اليوم الذي كان يبعثه فيه المعلم إلى أحد الزبائن كالعادة بلفافة، حين استوقفه أحد أمناء الشرطة في المنطقة، وهويرمق اللفافة بنظرة خبيثة قائلاً:

– رايح على فين؟

كان (هشام) يعلم أن المعلم يشتري صمت الشرطة عن نشاطه، ولكن يبدو أن أمين الشرطة هذا قد أراد أن يقضي سهرة ممتعة مع أصدقائه، مليئة بالأبخرة الزرقاء وبدون مقابل، لذلك فقد تمسك (هشام) باللفافة، وهويقول:

– المصلحة دي تخص المعلم (جودة)، وقالي لازم أوصلها.

رفع الأمين أحد حاجبيه وهو يمد يده له قائلاً:

– هاتها..انا هاوصلها يا نتوس.

قال(هشام) متحدياً:

– المعلم قال أن أنا اللي اوصلها..يبقا انا اللي هوصلها.

هنا تلاشت الابتسامة من على وجه الأمين وهوى بيده على وجه (هشام) هاتفاً:

– بتشك في ذمتي يابن ال....أنا بقا هخدها منك عشان بتشكك فيها.

وهنا أدرك (هشام) أن الأمين قد قرر التمادي في الأمر، وفي نفس

الوقت إذا أخذ اللفافة فإن المعلم لن يرحمه.. لذلك فقد اتخذ قراره سريعاً.. وفوجئ الأمين بـــ(هشام) ذي الخمسة عشر عاماً يقبض على حفنة رمال من الأرض، ويقذفها في وجهه، وما كاد يصرخ ويسب ويلعن وهو يتحسس عيناه من ألم القذفة، إلا وكان (هشام) قد أطلق ساقيه للرياح..

وانطلق الأمين يعدو خلف (هشام) الذي كان يعبر الشارع مسرعاً، وهوينظر خلفه، ولم ير تلك السيارة المسرعة التي كانت تعبر الطريق وقتها..

وكان الاصطدام..

***

3

من قال أن السحرة يعيشون في سعادة وهناء؟

حتى بعد أن صار (عماد) ساحراً شيطانياً إلا أنه لا يستطيع تذوق طعم الهناء والراحة، كيف يستطيع النوم وذلك الشيطان المسلسل الذي بحوزته يؤرق منامه ولا يكف عن الحركة لحظة واحدة..

لكل شيء ثمن وهو قد دفع الثمن باهظاً جداً..

إن من ضمن مراسم تعميد السحرة كتابة عقد بين الساحر وبين حاكم المملكة الشيطانية ينص على الآتي:

أولاً: أن يغتسل لآخر مرة في حياته؛ لأن الشيطان لا يحب النظافة.

ثانياً: أن يأكل الخبز والملح لأخر مرة في حياته؛ لأن الشيطان لا يحبهما.

ثالثاً: ألا يصلي وأن يقر بأنه باع روحه للشيطان بيعاً أبدياً وأن يتبرأ من كل الأديان.

رابعاً: أن يُحدث في نفسه عاهة ما كجرح في الوجه أو تشويه في يده أورجله، أو يكون خلع عين بكاملها أو قطع رجل بأكملها؛ لأن الشيطان يكره الجمال بشدة "وقد قام (عماد) بقطع إصبع يده الخنصر الأيسر"، وكلما زاد الساحر من تشويهه علا مقامه أكثر في المملكة الإبليسية.

خامساً: يقوم الحاكم بتسليمه شيطاناً مسلسلاً يساعده في أعمال السحر التي ينوي القيام بها، ويتعهد بالحفاظ عليه؛ لأنه عهدة، ويجب أن يربطه دائماً ولا يجعله يغيب عن عينيه؛ لأنه إذا هرب فمن الممكن أن يستعيد الساحر مكانه، وغالباً ما تكون الشياطين تريد الهرب، فلا يوجد مخلوق يحب العبودية والتسخير.

سادساً: أن يقوم بطقوس تعبدية للشيطان يقدم فيها قربان، ويمكن أن يكون هذا القربان حيواناً أوإنساناً – وهذا الأخير مفضل جداً لدى الشيطان– وأن يقوم بتكسير عظامه وضربه بشكل مؤلم حتى الموت.

ثم يقوم (عماد) بالتوقيع على العقد بدمه أمام كل الحضور، على ورق نقن من جلد الكلب، بينما كلمات العقد نفسها من الفضلات والقاذورات، وبعدها يقوم الحاكم بتسليمه ملابس السحر الخاصة التي يكون عليها طلاسم شيطانية، ويجب أن تكون هذه الطلاسم من الداخل ملامسة لجسده، وكلما تقادم زمن هذه الطلاسم كلما كانت أقوى وأفضل..

ولوكان (عماد) في حالته الطبيعية لكان الجرح مكان إصبعه

المبتور يؤلمه كثيراً، لكنه فعلاً لا يشعر إلا بألم طفيف كأنه جرح سطحي، مما دله على أنه قد تغير فعلاً، وأنه لم يعد كما كان..

لم يعد ذلك الإنسان الذي ترك والديه، وذهب ليكمل تعليمه بعيداً عنهم، ويحاول أن يكمل الدراسة لكن نفسه الضعيفة جعلته يتبع رفاق السوء ليغرق في المفاسد والملذات، وكالعادة تنتهي قصة حبه لغاية فاشلة مثله، ليشق طريقه في الحياة العملية، قبل أن يقرأ كتب السحر، ويكتشف ذلك العالم الآخر غير المرئي الذي يوجد حولنا، ويقرر أن يقتحمه بعد أن فشل في عالم البشر..

إن الفضول هو الغريزة التي غيرت حياة أناس كثيرين، ولم يكن هو باستثناء منهم..

والدليل هو وجود (مطرون) ذلك الشيطان الذي بحوزته، والذي يتهيأ بمهنة الجن الناري.. ثلاثة عيون في رأسه التي ينبت في أعلاها قرنين، أربعة أيادي تنبت من جسده الأحمر اللون، يتجاوز طوله المترين بينما يتقيد بسلاسل حديدية ملقى عليها تعاويذ لمنعه من الفرار، وإن كانت لا تمنعه من تنفيذ الأوامر والطلبات التي يطلبها منه (عماد)، الذي منذ أن عاد من ذلك الاجتماع الجهنمي، وهو لا يستطيع الراحة إلا قليلاً؛ لأن (مطرون) لا يكف عن الحركة وإثارة القلق..

ورغم أن الساعة كانت تشير إلى الواحدة ظهراً، إلا أنه تذكر أن حياته غالباً ستكون ليلاً؛ لأن الشياطين تنشط في هذه الساعات، وسيكون تأثير السحر أقوى، لذلك فقد نهض من على فراشه في تلك

الشقة التي يقطنها وحيداً، واتجه إلى (مطرون)، وقد أكسبته الملابس السحرية قوة وتأثيراً شديدين، ومشاعر الغضب تعتمل بداخله، وهويقول له صارخاً:

- هاتسكت شويه والا عاوز تتأذي؟

يعلم (مطرون) أن الساحر الواقف أمامه يستطيع إلقاء تعاويذ عليه تؤلمه، وترغمه على إطاعة أوامره بالسكوت أو تنفيذ أي طلب من طلباته..

(مطرون) أحد الأمراء الإبليسين السابقين لقبيلة من قبائل الجن الأحمر الناري، لذلك علينا معرفة القليل عنهم..

يعتبر الجن الناري من أهم أنواع الجن فهم أصل الجن، فلم يكن موجوداً أي نوع في بداية الخلق إلا الناريون الذي قدر الله لهم خلقهم من مارج من نار، ومنهم إبليس وأتباعه ثم تحول بعد ذلك قسم منهم بطبيعة سكنهم وخواصهم التكوينية والفسيولوجية إلى بقية الأنواع، فمنهم الغواصون والبناءون والترابيون وهكذا، ومن هذه الفصيلة نوع يسمى الأبالسة وعبدة النار والطبيعة وقبائل الجن الأزرق والأحمر والجن الأخضر، وهذه القبائل يسيطر عليها اثنان من أولاد إبليس أو أحفاده، ويمثل هذا النوع من الجن في عالمهم العدد الأكبر حيث تصل النسبة إلى النصف تقريباً، ويمتازون بصلابتهم وقدرة تحملهم الكبيرة وأغلب هذا النوع من المقاتلين الأشداء، ذوي سرعة عالية والطيران في هذا النوع سريع جداً وبكل الاتجاهات خاصة الطيران العمودي..

ويستخدم هذا النوع من الشياطين إذا مس الجسد أسلوب النفخ الناري وهو أفضل سلاح لديهم يؤثر على جسد الإنسان، فيشعر المريض بحرارة في بقعة معينة من جسده حسب المكان الذي يسكن فيه الشيطان، ويسكنون في الأماكن الحارة من الأودية، وفي أعلى التلال والجبال المعرضة لأشعة الشمس..

إن هذه ليست أول مرة يكون فيها (مطرون) تحت إمرة ساحر، فعبر سنوات عمره التي قاربت على الخمسمائة قام بخدمة سحرة كثيرين، تعلم وشاهد الكثير عبر حياته، وهو مقيد بهذه السلاسل بأمر أحد أحفاد إبليس، بعد أن كان أميراً لقبيلته وتحت إمرته العديد من مردة الجن والشياطين، لكنه جرؤ قديماً وخالف المواثيق التي تحكم مملكة الشياطين ولم يطع أمر الحاكم الإبليسي في إحدى المرات، فحكم عليه بأن يكون مسخراً لخدمة السحرة من البشر، حاول خلالها كثيراً أن يفك قيده ويهرب، وأن يعود ليتزعم قبيلته لكن التعويذة التي تلقى عليه لا يستطيع فكها إلا بأمر الساحر نفسه، الذي يكون حريصاً على التأكد من هذا الأمر؛ لأن سر قوته وعمل كل الأمور الشيطانية التي يريدها تتم أغلبها من خلال (مطرون)، ثم أنه لو استطاع فك القيود لاستعاد كل قوته وخبرته التي اكتسبها عبر الأجيال، واستطاع أن يسخر هذا الساحر لخدمته وأن يذيقه الويل كما يقاسيه..

لكل هذا فقد ابتلع (مطرون) الإهانة في صمت، وهو يرد عليه قائلاً:

– سأصمت..لكن هذه القيود تؤلمني.

– كويس.عشان قدامنا شغل بالليل.

يكتم (مطرون) حنقه وغيظه بداخله، وهو يراقب سيده يعود إلى فراشه، ويتمتم لنفسه قائلاً:

– هل تظن أنك ستستمتع بهذا، سوف أحيل حياتك إلى قلق أبدي أيها الإنسي.

وازداد غضبه أكثر..

***

(السلخانة)..

قلة فقط من يعرفون معنى هذا الاسم في ذلك الحي الشعبي، ولكن كثير منهم ممن كان تعيس الحظ من دلف إليه بقدميه، وغادره إما محمولاً أو عاجزاً أو منكسراً..

يفخر (بسيوني) السادي أنه المشرف على ذلك الوكر، الذي بني خصيصاً تحت أرض مركز الشرطة التابع له، والذي صمم خصيصاً لتعذيب المتهمين وغير المتهمين وانتزاع الاعترافات منهم بعيداً عن أعين منظمات حقوق الإنسان، ويستعمل فيه جميع ألوان وأشكال التعذيب التي تنتهي دائماً إما بتوقيع الشخص المراد اعترافه بهذه التهمة، التي تكون غالباً ملفقة له، إما بموته..

وقد أثبتت (السلخانة) فعاليتها في هذا المضمار..

فكم من تهم لُفقت، وزورت لأناس وتبرأ منها آخرون، وكم من شخص غادر المكان بعاهة مستديمة، ولم يستطع إرجاع حقه المهضوم، وكم من قضايا تم إغلاقها رغم أنها واقعياً لم يكشف عنها الغموض بعد، حتى أن (بسيوني) صار معروفاً في أوساط الشرطة بأنه صاحب العلاج لكل مشكلة تقف في طريق أحدهم، أما المساكين الذين كانوا يتوفون من شدة التعذيب، فلم تكن هذه بالعقبة العسيرة أمامه، إذ يكفي تقرير من الطب الشرعي بأن المتهم قد قتل نفسه، أو أنه كان مريضاً، أو إذا حدث وأن قذفه (بسيوني) من نافذة مكتب المأمور في الطابق الرابع – مثلما حدث ذات مرة وفقد أعصابه فيها بعيداً عن (السلخانة) – فإن المتهم قد حاول الفرار وقفز من النافذة..

إن قانون الطوارئ رائع حقاً لمن هم مثل (بسيوني) يصير هوالقانون ذاته.. يأمر فيطاع..

لكن هناك مشكلة تؤرق حياته وتقلق مضجعه، ويحاول أن يجد لها حلاً، رغم أن كل المشاكل تتزاح من طريقه..

مشكلة اسمها (وفاء)

تلك الزهرة اليافعة التي تسكن في الحي الذي يقطن فيه، والتي ترتدي الأسود حداداً على زوجها، فلم يزدها هذا في عينيه إلا جمالاً وأنوثة، فبحكم عمله عاصر (بسيوني) الكثير والكثير من النساء، اللاتي كن يأتين إليه إما عن طريق الإمساك بأحد شبكات الدعارة – وهم يمسكونها؛ لأن صاحب أو صاحبة الشبكة تأخر في دفع الإتاوة المفروض عليه، فتكون هذه بمثابة تحذير– أو تكون إحدى السيدات

قد تورط أحد أقربائها في قضية عويصة، فلا تجد مخرجاً إلا الذهاب إلى (بسيوني)، الذي أن كان في حالة نفسية جيدة، والمرأة تكون ذات قوام فائر ووجه صبوح، وقتها يتبخر المال من ذهنه، وتنشط هرموناته الذكرية الفحولية، ويقوم بإشباع رغباته الجنسية معها، بعدها يتم الإفراج عن قريبها، أو أن يذهب إلى (شلبي) القواد، لكن (وفاء) كانت من نوع آخر..

نوع يفتقده (بسيوني) – رغم حياته القاسية وقلبه الصخري – حيث تجد جمال الوجه مجتمعاً مع جمال الروح، حيث تستحق (وفاء) اسمها مع محافظتها على ذكرى زوجها، وعنايتها بابنها الصغير وحدها، رغم تقدم الكثيرون إليها، ثم إنها– من وجهة نظر (بسيوني)– صعبة المنال وهذا ما جذبه إليها أكثر..

المهم أنه وهو يطالع وجه زوجته (سيحة) هذا الصباح، بعينيها المتورمة جزاء لطمة بسيطة من ظهر كفه العملاق، وشعرها المنكوش الذي لم تعد تهتم به إطلاقاً، إذ كلما قامت بتصفيفه فإنه لا يسلم من قبضة زوجها عند حدوث أي مشاجرة بينهما، رغم أنها قديم قبل أن تقع في هذه الكارثة وتتزوج هذا الثور الآدمي كانت على قدر من الجمال، ووجهها الذي زينته أخاديد الهم والزمن والعراك أيضاً، فقد ترسخت صورة (وفاء) في ذهنه أكثر فأكثر، بعينيها العسليتين بلون الشمس، وقوامها البديع المائل قليلاً إلى الامتلاء، وقطع صوت زوجته حبل أفكاره:

– روحت فين يا سيد الرجالة؟

اشتم (بسيوني) رائحة السخرية في كلامها، واشتم أيضاً رائحة معركة قادمة، لذلك فقد ارتدى ثيابه، وهو يرد بغلظة:

– أنا هنا يا ولية.. هكون روحت فين يعني؟

نظرت إليه في ريبة، وهي تقول:

– شايفاك سرحان اليومين دول على غير العادة.

أخذ علبة سجائره ووضعها في جيبه متأهباً للانصراف، وهو يقول:

– الشغل مع ولاد الكلب دول بيجنن الواحد ويطير عقله.

برغم هيبة (بسيوني) وجسده الضخم، إلا أن (سيحة) من كثرة تعودها على المشاجرات معه، وتعودها على ضرباته، فلم تعد تهابه، وهذا ماجعله يؤثر أن ينأى بنفسه عن الشجار معها مؤقتاً، لئلا تخرجه من سبل أفكاره اللذيذ مع (وفاء)، لكنها بغريزة الأنثى أحست قلقاً خفياً، جعلتها تمصمص شفتيها، وهو يحاول الخروج من المنزل، وتقول:

– ربنا يقوي عزيمتك يا سيد الرجالة.

استشاط غيظاً من داخله، لكنه كتم مشاعره في صعوبة مع رنة السخرية التي عادت في كلامها، فغادر البيت وهو يصفق الباب وراءه، ثم استقل سيارته الصغيرة إلى مركز الشرطة، وهو يحاول جاهداً أن يعود ليستطيع تركيز أفكاره في الطريقة المثلى، التي يمكن أن يوقع بها (وفاء) في حبائله..

لابد أن يجد طريقة..

بأي ثمن..

***

ـــ اللي شوفته قبل ماتشرفك عنيا عمر ضايع يحسبوه إزاي عليا..

تردد صوت كوكب الشرق الشجي عبر مذياع ذلك المقهى في ذلك المساء، وهو يصف مشاعر(عمر) بالضبط، بينما يجلس بجانب صديقه (أحمد)، يحتسيان كوبين من الشاي على مقهى المعلم (جودة) صوت (أم كلثوم)، وكوب الشاي الدافئ الممزوج بالنعناع مع نسمات الهواء العليل، وقلبه الذي يتعلم الخفقان بالحب الحقيقي لأول مرة.. هل هناك أمتع من هذا؟ إنه من بعد أن شاهد (نوال)، وقد تغيرت حياته رأساً على عقب..

تلك السيمفونية الروحية التي تولدت بين قلبيهما، وعزفت أروع الألحان على أوتار قلبه اليافع، وجعلته مدمناً لرؤيتها، حتى يكمل السيمفونية بصرخات أوبرالية تنبع من شرايين قلبه، لتصل إلى عنان السماء، وتعود إلى قلبه محملة بترانيم روحانية، تبث أسمى المعاني..

قطع (أحمد) حبل أفكاره، وهو يقول مداعباً:

– شكلها خدتك منا عالآخر.

ابتسم (عمر) وهويحتضن كوب الشاي بكفيه، ويقول:

– كنت فاكر أن الحاجات دي بتحصل في الافلام بس طلعت الحقيقة أكتر من كده.

وضع (أحمد) ساقاً على أخرى، وهو يعتدل قائلاً:

– وإيه هي الخطوة الجايه يا روميو؟

– زي أي خطوة صح.. هحاول الأول أتعرف عليها أكتر وأقرب منها، وبعدين أتقدم لها رسمي.

– فعلاً.. محدش ضامن تكون بتحب حد تاني، لأنها زي ما قلت عن صفاتها، شكلك مش أول واحد يفكر فيها.

– لو ده بجد هاتبقا مشكلة..ادعي بس مايكونش حد تاني سبقني ليها.

– يا ريت يا خويا، وتكون زوجة صالحة انت ابن لذينا بس تستاهل كل خير.

– شكلها اتنقلت هنا من فترة قريبة عشان دي أول مرة أشوفها.

– وأنا معرفش بنات كتير في حينا البائس بالمواصفات اللي قولت عليها.. يتعدوا على صوابع الايد الواحدة.

– بكره هستناها في نفس الوقت اللي عدت منه قدام الورشة وهحاول أكلمها تاني.

قال (أحمد) مازحاً:

– خلي بالك بقى لحسن يغمى عليها من ريحتك وانت طالع من الورشة بعرقك وزيتك وشحمك.

– شمتها امبارح يا خفيف ومحصلش حاجة.

لم يكد يتم عبارته، حتى اتسعت عيناه دهشة، وترك كوب الشاي من يده على المنضدة، وهويحدق أمامه، مما جعل (أحمد) يقول:

– مالك؟ شوفت عفريت والا إيه؟

لم ينبس (عمر) بأي كلمة، فنظر صديقه إلى ما ينظر إليه، ورأى خرتيتاً بشرياً يسير بجوار يمامة وديعة، فخيل إليه أنه قد فهم الأمر، خاصة وأن هذا الشخص ينظر إليها نظرة وديعة لا تليق بهيئته، بينما هي لا تنظر إليه إطلاقاً، وتبدو على محياها الجميل إمارات الضيق..

تلوّن وجه (عمر)، وقد خالط وجهه شعور بالغضب والضيق والحزن في آن واحد، فقال (أحمد):

– هي دي والا إيه؟

هز (عمر) رأسه بالإيجاب، وهويقول بصوت مختنق:

–أيوه.

تساءل (أحمد):

–ومين اللي ماشي معاها ده؟

حاول (عمر) أن يشيح ببصره عنهما،خاصة وألمهما انعطفا عند آخر الطريق، وهويقول:

– مش عارف.

رشف (أحمد) رشفة من كوبه، وهويقول له:

– اسألها بكره ياعم الحاج.. ممكن يكون أخوها والا.

قاطعه (عمر)في ضيق:

– ما اعتقدش كده شوفت كان بيبصلها إزاي؟

حاول صديقه أن يخفف عنه، وهويقول:

– ماتضايقش نفسك شكلها أصلاً كانت مخنوقة منه.

زفر (عمر) زفرة حارة حملت كل البراكين المستعرة في أعماقه، قائلاً:

– ياريت.

حاول (أحمد) إخراجه من ضيقه، فضحك قائلاً:

– أصلًا مفيش حاجه تخليها تضحك وهي ماشيه مع النور ده.

لاح شبح ابتسامة على وجه (عمر) وهويقول:

– فعلاً.

عقد (أحمد) حاجبيه، وهو ينظر حوله في المقهى متسائلاً ليغيّر الموضوع:

– راح فين الواد (هشام)؟..ماشوفتوش بقاله يومين وهو مابيسيبش المكان هنا.

تنهد (عمر) وهو يرد قائلاً:

– سمعت (فؤاد) الصبي اللي معايا في الورشة بيقول أنه اتصاب في حادثة.

– ايه اللي حصل بالضبط؟

– شكله كان بيعدي الشارع بسرعة وخبطته عربية.

– يا نهار أبيض.. وهو عامل إيه دلوقت؟

– ماوقعش تحت العجل لحسن حظه، طبرته بعيد بس كسرتله رجله.

ضرب (أحمد) كفاً بكف وهو يقول:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. شكل الواد ده لوحده يخليه يصعب عليك أعتقد أن مالوش قرايب.

– أظن كده، والمعلم (جودة) بيتحمل تكاليف علاجه.

– برغم البلاوي اللي بيتاجر فيها، إلا إنه فعلاً شهم وبيخدم الكل.

– ربنا يتوب عليه من الشغل ده.

شرد (عمر) بنظره لبرهة وهو يقول:

– آمين.

نهض (عمر) من مكانه متأهباً للانصراف، فقال له (أحمد):

– لسه بدري.

قام (عمر) بالنداء على (مجدي)، وهو يلتقط النقود من جيبه، ثم قال لصديقه:

– لازم أصحى بكره بدري عندي شغل كتير في الورشة.

غمز (أحمد) بعينه، وهو يقول مداعباً:

– طبعاً حاكم الشغل ده لازم تقوملو بدري.

بادله (عمر) الابتسام بابتسامة شاحبة، حاول أن يداري بها مشاعره التي تفور وتغلي، وهو يقول منصرفاً:

– تصبح على خير.

ثم انصرف تاركاً المقهى والمكان، والأسئلة والخواطر السوداء تعربد في ذهنه وأعماقه..

من هذا الشخص الذي كان يسير بجوارها؟

هل هو خطيبها أم قريبها؟

وهل سيستطيع محادثتها غداً بعد هذه الصدمة التي تلقاها؟

ولم يكن يعلم أن الأمر أكبر من هذا بكثير..

وأنه لن يكون بهذه السهولة..

***

4

من ذا الذي لا يعرف المعلم (جودة الدكش)؟..!!

كل من عاصر أيام النبوت والفتوات، الذين كانت الأرض ترتج تحت أقدامهم، وتنحبس الأنفاس رهبة وإثارة عند مجيئهم بصحبة نبابيتهم، يعرف جيداً من هو المعلم (جودة).

عندما كانت تفور دماء الشباب والقوة في شرايينه، وهو يحمل نبوته الغليظ الثقيل في يمينه كما يحمل أحدهم زجاجة من المياه، ويرتدي عباءته الفخيمة، ويفتل شاربيه الكثين، فارداً هامته الشاهقة، بينما خلفه أتباعه، وهو يتقدم لمنازلة أحد فتوات الحارات الأخرى..

كان ينتشي لسماع شهقات الجمع من حوله، وهو يناور ويحاور الفتوة الآخر، ثم يهوى بنبوته على ظهره، ويقوم بضربه ضربة موجعة في قدمه، يخر لها الفتوة ساقطاً، بينما ينقض (جودة) على فريسته، واضعاً عصاه على رقبته، منهياً القتال كعادته، وسط تهليل أتباعه..

كان المعلم رغم هذا مثار احترام الجميع ورهبتهم؛ لأن مفهوم

الفتونة كان أن يحمي أهل حارته وأتباعه، قبل أن يدينون له بالولاء والطاعة، وأن تكون كلمته هي المسموعة من الجميع..

لكن الزمن يتغير ولا يرحم أحداً..

لم يعد هذا زمن الفتوات، ولا زمن الشهامة والنبل وأخلاق ابن البلد الشهم..

صار زمن الفساد والغش والخداع والفهلوة، وإن لم تجار هذا الأمر فسوف تضيع وسط الغابة؛ لذا فإن المعلم (جودة) بعد افتتاحه المقهى، وجد أن المال هو من ينحني له الجميع احتراماً ويقدرونه حق تقديره، فلم يجد مفراً من أن يلحق بركب هذا الزمن – بعد تقدم العمر وضياع الصحة والهيبة معاً – ليجد أن هناك طريقاً سهلاً يمكنه ارتياده، بل وبمباركة الحكومة أيضاً..

ليس هناك أسهل من الربح في تجارة الممنوعات، من هيروين وكوكايين وحشيش..إلخ، خاصة مع وجود أصحاب النفوس الضعيفة من الشباب، الذين أهكتهم الحياة وأعطتهم ظهرها، فلم يجدوا سبيلاً لتحمل أوجاعها إلا هذا الطريق المظلم..

ورغم تردده في بداية الأمر، إلا أن النقود تعمي أبصار الناس وتعيد إليهم احترامهم وهيبتهم، خاصة لو كان الأمر مع المعلم (جودة)، الذي تركه أبناؤه ليعيشوا حياتهم، تاركينه مع أمهم التي مرضت، ثم فارقت الحياة منذ عام أو يزيد بعد رحلة حياة مع المعلم، الذي ودعها بقلب مثقل بالألم والهموم، لم يعد أن عاد ليتخلص من همومه وآلامه بعد عثوره على (سامية)، التي تصغره بأربعين عام

تقريباً، لكن ظروف أهلها المادية الطاحنة وحاجتهم الشديدة هي التي جعلتهم يوافقون على هذه الزيجة، خاصة لما للمعلم (جودة) من سمعة حسنة – حيث أن تجارة المخدرات لم تكن من الأمور المعيبة تقريباً في هذا الحي، أو أنهم لم يكونوا يعلمون – وأنه رجل شهم ومازال محتفظاً بهيبته ووقاره..

والحق يقال فإن (سامية) قد استطاعت تحسين أوضاع أسرتها المزري بعد زواجها من المعلم، الذي كان يغدق عليها بالهدايا ولم يبخل عليها بشيء، مقابل أن يستمتع بشبابها وجسدها الفائر وجمالها، الذين كانوا سبباً في هذه النقلة التي يعيشونها..

لكن دوام الحال من المحال..

و(سامية) التي تمتلك جسداً شاباً ومشاعر أنثوية ملتهبة، لم يكن المعلم ليستطيع تلبية كافة متطلباتها الجسدية، ولا أن يروي عطش ظمأها الحارق إلى الجنس، والذي يطالبها بحقه كل ليلة بعد أن يغفو المعلم ويوليها ظهره، ليغط في نوم عميق مع شيخوخته التي تجعله لا يستطيع أداء وظيفته الزوجية على الفراش كاملة، تاركاً زوجته بجواره تتفجر الأفكار الصاخبة في ذهنها ووروحها وجسدها..

لذلك كان من الطبيعي بعد مشاهدتها لبنيان (عمر) العضلي، ووجهه الوسيم الرجولي، أن يأخذ مكانه في الزاوية الأساسية لأفكارها الثائرة، خاصة وأنه يسكن في الطابق الذي يعلوها مع والدته العجوز بعد وفاة والده، وأن تأسرها عيناه السوداوان العميقتان..

لكل هذا فقد قررت (سامية) أن تشبع رغباتها الكامنة، وأن تصل

إلى (عمر) بأي ثمن،خاصة وأنها تقطن لوحدها مع المعلم في هذه الشقة، ولم تفلح وسائل الترفيه في ملأ فراغ الملل وسيل الأفكار المتمرد الذي ينبعث من داخلها، بينما ساعدها في رسم خطتها أن المعلم يلتزم بمواعيد نزوله إلى المقهى والعودة منه، ولم يحد عن هذه المواعيد إلا نادراً جداً..

وعندما تريد المرأة شيئاً فإنها لابد وأن تفعله مهما كان الأمر،خاصة وأن (عمر) شاب في مقتبل العمر، يعمل في ورشة خاله القريبة من الدار، ولا تظن أن هناك جنساً أنثوياً في حياته بعد..

لذلك عندما غادر المعلم إلى المقهى في ذلك الصباح الباكر، بعد ليلة قضتها وسط شخيره المتعالي، وأفكار جامحة عصفت بكل لمحة في كيانها، فقد نهضت من على سريرها وارتدت جلباباً منزلياً ضيقاً يبرز قسمات جسدها الفاتن، ثم جلست لتضع بعض مساحيق التزيين، وتتأمل قسمات وجهها الجميل، بعينيها البنيتين الصافيتين، وشعرها الأسود الناعم، وبشرتها البيضاء المشربة بالحمرة، ولم تكد تنتهي من زينتها حتى قامت برش نفثات من العطر الذي أهداها إليه المعلم، ثم ذهبت إلى المطبخ لتتأكد من أن المصباح الذي يعلو الحوض لا يعمل، ونظرت إلى عقارب الساعة التي تعلوالردهة، وهي تغمغم لنفسها:

– لسه فاضل نص ساعة تقريبًا.

وبعدها بنصف ساعة، كان(عمر) يهبط درجات السلم للذهاب إلى الورشة، ليجد باب منزل المعلم يفتح، وتبرز منه (سامية).

ويجدر بنا الذكر أن هذه الأحداث وقعت قبل مشاهدة (عمر)

لـ(نوال)؛ لذلك فقد رفع (عمر) بصره لتقع عيناه على (سامية) في أوج فتنتها ودلالها، وهي ترنو إليه بنظرة ناعمة؛ وتقول:

-صباح الخير يا أستاذ (عمر).

خفق قلبه بقوة مع هذه الكلمة التي شعر من ورائها بأشياء أخرى:

- صباح النور يا ست (سامية).

- كنت عاوزة منك خدمة.

- أنا تحت أمرك بس لو عرفت أعملها.

اقتربت منه قليلاً، لتدغدغ رائحة عطرها المثير أنفه، وهي تقول بلهجة ذات مغزى:

- أنا متأكدة انك هتعرف.

عقد حاجبيه متسائلاً، بينما هو يرنو بنظره إلى قسمات جسدها البديع من خلال ما ترتديه:

- في إيه بالظبط؟

أفسحت له الطريق أمام باب البيت، وهي تقول مستنكرة:

- مايصحش نتكلم كده عالباب، تعال هو جوه في المطبخ.

- هو إيه ده اللي ف المطبخ؟

أمسكت بطرف خصلة من شعرها ولوته، وقد أعجبها ارتباكه قائلة:

- اللمبة اللي مش شغالة جوة وعاوزه منك تغيرها بس.

تنحنح محاولاً إزالة توتره، ومحاولاً طرد أفكار شيطانية عصفت بكيانه:

- وهو المعلم جوه؟

ابتسمت ابتسامة عابثة، وقد أدركت أنه قد فهم ما تريده وتشتهيه، وهي تجيبه:

- لو كان جوه كنت خليته هواللي غيرها..تعال.

دلف إلى الداخل، وأغلقت هي الباب وراءهما، وهي تقوده إلى المطبخ، ثم تشير إلى المصباح قائلة:

- أهو هنا.

كانت تستند على الباب بظهرها، تاركة له مجالاً ضيقاً للمرور، وهي ترمقه بنظرة خاصة، بينما يبرز جمال ثدييها من فتحة الجلباب الصغيرة، مما جعل مشاعراً صاخبة تنبعث في عروقه، وهو يمر بجانبها، ويمس جسده أجزاء من جسدها النابض بالإثارة، وجعله لا يستطيع السيطرة أكثر على مشاعره، وهويحيط وسطها بذراعيه؛ مما جعلها تطلق شهقة قوية، وهو ينقض بشفتيه على عنقها، مقبلاً إياها بجنون، وهي تقول متأوهة:

- مش كده يا سي (عمر).. إهدى شوية.

لكن (عمر) لم يكن في حالة تسمح بالتعقل، وهو يحملها حملاً بين ذراعيه، فأحاطت ذراعيها بعنقه، وهي تضحك ضحكة عابثة، وهو

يمطرها بقبلاته في وجهها وشفتيها، متجهاً إلى أول حجرة صادفته، فقالت متدللة:

– مش الأوده دي..التانيه اللي هناك.

ولأول مرة منذ زواجها، شعر (سامية) فعلاً بلذة المعاشرة..

ليس هناك مثل الشباب..!

إن المال يستطيع شراء أغلب الأشياء،لكن ليس كل شيء..

لذلك وبعد هذا اليوم الصاخب الذي ارتوت منه حتى الثمالة، فقد صارت عادة أن تنتظر طرقات (عمر) على بابها في الصباح قبل أن يذهب إلى عمله، وينهلان من كأس الشهوة، لتعيد إلى جسدها ما تفتقده مع زوجها الفتوة قديماً العجوز الغارق في شخيره حالياً..

كانت تمر أجمل وألذ لحظات حياتها، بينما هي غارقة في بحر العسل مع (عمر)، حتى لم يعد يزعجها شخير المعلم ليلاً، بل كانت تبتسم متهكمة، ثم تعود لتذكر اللحظات المحرّمة التي تقضيها مع (عمر) إلى أن بدأت تلاحظ ذلك التغير الذي بدأ يطرأ عليه..

لم يعد يأتي إليها بانتظام، وحتى عندما يكون معها بجسده تشعر أن عقله ليس معها..

وهي كأنثى تعرف ما معنى هذا..

تعرف تلك النظرة الساهمة، عندما تتحدث إليه في الفراش لكنه لا يكون منتبهاً كلياً..

إنه بالتأكيد يفكر في أخرى..

أنثى أخرى ستسلب عقله وجسده أيضاً منها بعد أن اعتادت على هذه الأوقات المحرمة، التي تشبع أنوثتها وجسدها، وستعود إلى تلك الليالي النابغية مع المعلم..

لذلك عندما انتهى معها في ذلك اليوم، وهو يرقد بجوارها على الفراش لاهثاً، بينما هي لا تزال تعاني من آثار النشوة الحميمة، فقد مالت لتضع رأسها على صدره العاري القوي، وهويشخص ببصره إلى سماء الحجرة، وتقول له في دلال:

– ايه اللي شاغلك ومخليك بعيد عني؟

حاول أن يبتسم وهويقول:

– مفيش حاجة.. بس الشغل في الورشة بيرهقني شوية.

عبثت في شعر صدره، وهي تنظر إلى عينيه اللتين تجاهدان للإفلات من عينيها:

– وهو الشغل يخليك سرحان بردو؟

نظر على الجهة المقابلة وهو يجيب:

– لا بس بفكر اننا نخف شوية من اللي بنعمله.

هُضت من على صدره بحركة حادة، وقد تأكدت من تنبؤاتها وهي تقول:

– وهو فيه حاجة حصلت زعلتك مني؟

عاد ينظر إليها وهو يقول لها مستدركاً:

– لا بس عاوز أركز شويه في الشغل، والأهم ماحدش ياخد باله من اللي بنعمله.

قالت له متنمرة:

– أنت متأكد إن هو ده السبب؟

نظر إليها متصنعاً الدهشة وهو يقول:

– وهو في سبب تاني في دماغك؟

نهضت من على الفراش وهي ترتدي ثوب النوم الحريري، وهي تقول متنهدة:

– اسأل نفسك ماتسالنيش أنا.

حاول أن يجعل نبرة صوته طبيعية وهو يقول:

– أنا بطلب منك تخفف بس شوية عشان محدش يشك فينا مش أكتر.

واجهته وهي تضع قبضتيها في وسطها بحركة عصبية وتقول:

– زي ما انت عاوز أنا مش هاجبرك على حاجة.

اندهش من أعماقه لسرعة استجابتها رغم تنمرها الواضح في البداية، لكنه تجاوز الأمر سريعاً وهو ينهض بدوره ليرتدي ملابسه،قائلاً:

– اوك..مش عاوز بس اكون ضايقتك.

أولته ظهرها متظاهرة بالانشغال في شيء ما داخل الدولاب قائلة:

– لا ضايقتني ولا حاجة.

انتهى من ارتداء ملابسه وتركته يقترب منها ويحيط خصرها بذراعيه من الخلف، ويميل بوجهه على كتفها طابعاً قبلة على خدها قائلاً:

– انتي زعلتي والا ايه؟

زفرت زفرة حارة وهي تمسك بكفيه وتميل برأسها للوراء أكثر وهي تقول:

– وهو انا أقدر ازعل منك!!

كانت تستشيط غيظاً في أعماقها،وقد قررت أن تكتشف تلك الدخيلة التي توشك على إفساد حياتها..

ولم تكن تدري أنها ستفسد حياة الكثيرين..

***

لم تمض فترة قصيرة في ذلك الحي المتواضع، حتى ذاع صيت (عماد) سراً بين النسوة المؤمنات بالسحر والأعمال السفلية، اللاتي كن يردن إيذاء غيرهن من البشر، لذلك كن يذهبن إليه لقضاء حوائجهن، بشرط أن يكون هذا العمل للأذى فقط وليس للخير، وتلبية مطالبه مهما كانت عجيبة أو غريبة أو غالية أو حتى جنسية..

والحق يقال أن فكرة (عماد) الأولية عن البشر بأنهم زائفون

حاقدون مليئون بالرذيلة وحب إيذاء الغير، قد ازداد قناعة بها بعد ما شاهده وسمعه من كل من يأتي إليه طالباً إيذاء هذا أو إلحاق الضرر بذاك،مهما تكلف الأمر منهم وبأي وسيلة..

كيف لا يكون البشر هكذا ومنهم من تأتي إليه لإيذاء زوجة أخيها لأتفه الأسباب، أو أخرى لعمل سحر لابنة لجارتها؛ لأنها أجمل من ابنتها، ولا يأتي العرسان إلى عتبة دارهم بل إلى عتبة بنت جارتها دائماً، وثالثة كانت تحب شخصاً في شبابها، لكنه أحب أخرى وتزوجها، لذلك تريد أن تحيل حياته إلى جحيم، بجعل هذه الزوجة قبيحة في نظر زوجها، ورابعة تريد إصابة امرأة ثانية بالعقم، إلى آخر هذا الهراء..

كانت هذه الأعمال بسيطة ولا تحتاج إلى معاونة من (مطرون)، الذي كان يفكر ليل نهار في التحرر من قيوده، بينما إذا احتاج الأمر إلى (مطرون) فإنه يطلب أموالاً طائلة أو يطلب من (عماد) فعل أمور شنيعة، كذبح حيوان بدون ذكر اسم الله عليه، ثم يقوم بكتابة آيات من القرآن بهذا الدم، على جلد كلب أو قط نجس، أي أن (عماد) دون أن يعي كان يقوم بطقوس تعبدية لـ(مطرون) أيضاً، إلى غير ذلك من الأعمال الشنيعة التي يزدري بها القرآن ولا داعي لذكرها لبشاعتها، ورغم تفاهة هذه الأعمال – ما يطلبه النساء – من وجهة نظره، إلا أن الشيطان يسعد بها ويطلبها منه دائماً، مادامت تقوم على إيذاء البشر أوالتفرقة بينهم..

ومع مرور الوقت شعر (عماد) فعلاً أنه ازداد قوة وتأثيراً،مقابل

أن يقوم بطقوس الطاعة والتعبد دائماً لإبليس اللعين، وإحضار القرابين إليه التي دائماً ما تكون عبارة عن حيوان، بينما يزداد هوكفراً وفساداً، ويجوب أنحاء الأرض متعرفاً المزيد من أسرار العالم السفلي، متمتعاً بكل قدراته السحرية في إشباع شهواته ورغباته من ملذات الحياة، التي كان يتمناها ولا يستطيع أن يحصل عليها، فصارت سهلة يسيرة بين يديه، وقد صور له ضلاله وكفره أن الشيطان فعلاً ضحية ظلمه الله عز وجل، وأنه قادر على سعادة الإنسان، بينما الله يسعدنا بسعادة العالم الآخر غير الموجود، ولذلك على الإنسان أن يستفيد من هذه السعادة وينضم إلى معسكر الشيطان..

"اقتل ما رغبت في ذلك، وامنع البقرة من إدرار اللبن، واجعل الآخرين غير قادرين على الإنجاب، واقتل الأجنة في بطون أمهاتهم، واشربوا دم الصغار، واصنعوا منه حساءً، واخبزوا في الأفران لحومهم، واصنعوا من عظامهم أدوات للتعذيب ".

هذا هو ما قرأه في كتاب (أنطون لافي) الساحر اليهودي الأمريكي المشهور، الذي تزعم عبادة الشيطان بعد موت (أليستر كراولي) الساحر الأعلى شهرة، والذي قام بتأسيس كنيسة الشيطان – (أنطون لافي) – وهوما يطبقه بعض السحرة الأعلى شأناً منه الذين تعرف إليهم خلال رحلته، والذين رآهم يفعلون هذا بكل وحشية، ويقومون بممارسة العنف والشذوذ بأعتى صوره من تقييد امرأة بالسلاسل والتناوب على اغتصابها وتعذيبها، قبل أن يتم قتلها

وشرب دمائها لتقديمها كقربان للشيطان، إلى ضرب الأطفال الصغار حتى الموت وسحق عظامهم..

الحياة هي الملذات والشهوات، والموت هوالذي سيحرمنا منها، لذا اغتنم هذه الفرصة الآن للاستمتاع بهذه الحياة فلا حياة بعدها، ولا جنة ولا نار، فالعذاب والنعيم هنا..

هذا هو قانون السحرة، والذي يطبقه جميعهم على أكمل وجه..

وكان الأمر يحتاج غالباً إلى عمل عقد سحرية مربوطة مع أوراق عليها طلاسم وتعاويذ شيطانية، لتلقى في مكان قريب أو بعيد من المسحور حتى يلازمه السحر، قد يكون هذا المكان تحت الأرض أو في أماكن خفية حتى لا يعرف أحد مكانها؛ لذا فقد قرر كما استعان بمخدوم من الجن أن يستعين بواحد آخر من البشر..

يجب أن يجد نفساً تائهةً لا تجد من يرشدها، ولا تحوم الشكوك من حولها، وأن يكون ضعيف النفس والجسد حتى يستطيع السيطرة عليه وامتلاكه..

لذلك بينما كان الصبي (هشام) لا يزال يتألم من آلامه وأوجاعه التي تنتشر في ساقه المكسورة، راقداً على الفراش في تلك المستشفى الحكومي، التي يرقد في نفس الحجرة أربعة آخرين غيره، ويفصل بينهم ستار من القماش مهتريء الأطراف، وجد ذلك الشخص يدخل عليه لزيارته..

والحق يقال أنه شعر برهبة وخوف مبهم من ذلك الشخص،

بنظرات عينيه العميقة التي تشع مغناطيسية وقوة، وقامته الطويلة قليلاً، ووجهه المائل إلى الوسامة رغم نحوله، ورائحته الغريبة التي تفح من حوله، ولم يلبث أن اتخذ مكانه بجواره على الفراش، وهو ينظر إليه نظرة جمدت الدماء في عروقه، رغم أنه قال بصوت عميق هادئ:

– إزيك يا (هشام)؟

جذب (هشام) أطراف الغطاء إلى صدره تلقائياً، وهو يقول بصوت مرتجف:

– الحمد لله..أنت مين؟

ابتسم ابتسامة باهتة،وهويجيبه:

– أنا اللي هايخليك توقف على رجليك، وهايخليك أقوى من الاول لو سمعت كلامي.

زال أثر الخوف تقريباً من نفس الصبي، وهويقول بلهفة:

– بجد؟

رمق الشخص أصابع يديه قائلاً بنبرة واثقة:

– طبعًا يا (هشام) دي حاجة سهلة جدا، واكتر من كده لو انت ساعدتني.

عاد الخوف الغريزي إلى نفس (هشام)، وهو يقول:

– أساعدك في إيه؟

نظر إليه بعينيه العميقتين قائلاً:

– النهارده لما تقوم هقولك على كل حاجة.

فغر (هشام) فاهه دهشة قبل أن يقول متسائلاً:

– هقدر النهارده أمشي فعلًا؟..الدكتور قالي قدامي شهرين عالأقل لحد ما امشي.

نهض الرجل من على فراشه،وهويقول:

– هتقوم النهارده بعد نص الليل وبعدها هاتيجي لي.

– وهاجيلك فين إن شاء الله؟

– هتعرف.

رآه (هشام) يتخذ طريقه مغادراً، فهتف به:

– ما قولتليش انت مين؟

أولاه ظهره وهو يتخذ طريقه مغادراً:

– مؤقتًا هاتناديني (عماد).

***

– إنت فين يا (مصطفى)؟

انطلق ذلك السؤال ملتهباً من أعمق أعماق (وفاء)، وهي تواصل عملها المكتبي في تلك الشركة الحكومية، متذكرة محاولة ذلك الوغد (بسيوني) التقرب إليها، من ضمن عشرات المحاولات السابقة التي كان يقوم بها، بينما هي لا تطيق رؤية وجهه الكريه وكرشه المتدلي، ولا حتى التفكير في أي شيء يخصه..

تذكرت قصة حبها الرومانسي مع زوجها (مصطفى)، حيث كانا يدرسان سوياً في الكلية، وكان يكبرها بعامين..

ليس هناك مثل زوجها الراحل في رقته وحنانه وعطفه..

كانت تحبه بكل كيانها وجوارحها، وهو يبادلها حباً يحب أكبر وأعظم..

كم كانت تعشق همساته الرومانسية في أذنها، بينما هي جالسة بين ذراعيه، محتضنة وسطه بكل شوق وحب، ليأخذها من وسط العالم كله إلى عالم وردي..

تذكرت نظرة السعادة في عينيه عندما علم بحملها منه، قبل أن يحتضنها ويرفعها عالياً بين ذراعيه،ويمطرها بالقبلات وكلمات الحمد والشكر..

كم كان منظره مؤثراً وهي تراه يبكي، فور أن شاهد صغيره (حسام)، وهو يبعث إلى الوجود بينما هي راقدة على فراش المستشفى فور ولادته، ثم ينحني ليطبع قبلة على جبينها الغارق بالعرق، وهو يحمل طفله الذي كان مجهشاً بالبكاء..

إن الموت والمرض يجيدان اختيارهما..

تحاول جاهدة أن تنسى ذلك اليوم الذي اكتشفا فيه وجود ذلك المرض الخبيث به..

وقتها شعرت أن الأرض تميد تحت قدميها، لكنها حاولت جاهدة ألا تظهر هذا لزوجها العزيز، بل أرادت أن تطمئنه وتؤكد له أنه

سيشفى..

قاما بالذهاب إلى كل الأطباء المعروفين وذوي الخبرة، تحاولة العلاج لكن الجميع أجابوهم بأنه لا بديل عن العلاج الكيميائي، لتبدأ مرحلة جديدة من العذاب..

وقتها خيل إليها أنها في الجحيم، وأن حياتها بالكامل تنهار أمام عينيها، وهي ترى زوجها يتألم ويحاول جاهداً أن يتحمل مالا يتحمله بشر يوماً بعد يوم، وهي تقف بجواره تسانده وتعضده، تحاول أن تبث الأمل فيه وفي نفسها أيضاً، بينما يبكي قلبها بدموع من دم، وهي تمسح بأصابعها على رأسه الصلعاء وتحتضن جسده الهزيل بعد أن فعل فيه العلاج الكيميائي مافعل، وجعله أقرب إلى الهيكل العظمي..

تتذكر خوفه عليها وعلى طفلهما رغم ماهوفيه، وهو يقول لها دائماً:

– خلي بالك منه ومن نفسك يا (وفاء).

فتقول له والدموع تكاد تنهمر من عينيها:

– هاتقوم انت بالسلامة وهاتاخد بالك منا يا حبيبي.

تحاول عبثاً نسيان لحظاته الأخيرة، وهو ينظر إليها بعينيه الواهنتين الحمراوين، وتمسك بكفها الرقيق بين أصابعه، ويقول لها بشفتيه المتشققتين:

– ماتنسيش اللي وصيتك عليه يا حبيبتي.. خلي بالك منه ومن نفسك.تستميت لتمنع نفسها من البكاء، وهي تحتضن كفه بكفها

الأخرى، وتقول بصوت باك:

– اطمن يا حبيبي.

يبتسم ابتسامة واهنة، وهويقول:

– أنا مش عاوز حاجة م الدنيا خلاص.. الدنيا ادتني كل اللي كنت اتمناه.. ادتني أغلى وأجمل شيء في الوجود.

ثم ينظر إلى عينيها ويقول بكل حب الدنيا:

– ادتني (وفاء).. بحبك يا أغلى من عمري.

تجهش هنا بالبكاء وهي تحتضنه، وتقول من بين عبراتها:

– وأنا بحبك يا (مصطفى).

انهمرت في بكاء عنيف، وهي لا تزال تطوقه بذراعيها، حتى لم تعد تشعر بأنفاسه الدافئة على جانب وجهها..

نفضت سيل الذكريات من ذهنها، وهي تنهض بعد انتهاء وقت عملها، بينما تسألها (سميرة) زميلتها في العمل بدهشة:

– بتعيطي ليه يا (وفاء)؟

انتبهت (وفاء) إلى الدموع التي تسيل على وجنتيها، فاندفعت تمسحها بسرعة، وهي تغتصب ابتسامة على شفتيها،وتقول:

– مفيش حاجة.

هزت (سميرة) رأسها متفهمة، وهي تقول:

– لسه مانسيتيش.

– وهو اللي زيه ممكن يتنسي؟

لم ترد الخوض كثيراً في هذا الأمر، بينما تقول لها (سميرة):

–ربنا يباركلك في (حسام).

هزت رأسها موافقة وهي ترتدي حقيبة يدها، وهي تقول:

– الحمد لله على كل شيء.

إن (حسام) ابنها فعلاً هو الباقي لها من زوجها، والباقي لها من الدنيا تقريباً، حيث ورث ملامح وجه والده الهادئة المحببة إلى روحها، والذي اعتنت به جيداً، وأقسمت ألا يشغلها شيء عن تربيته والاعتناء به جيداً، كما أوصاها زوجها الحبيب قبل وفاته..

لم تكن تدري أنه قبل خروجها من عملها، حيث يكون (حسام) قد أنهى وقته الدراسي قبلها، فينتظرها خارجاً وهويلعب مع أقرانه، قد توقفت سيارة نقل أجرة أمام (حسام)، ليجد الصغير السائق ينادي عليه باسمه، فالتفت إليه متسائلاً، بينما يقول له الرجل بلهجة ودود:

– تعالى يا (حسام).

توجه إليه الطفل الصغير، بينما هبط السائق من السيارة، وهو يقترب منه وينحني ليقارب وجهه، والصغير يسأله:

– إنت مين وعاوز مني إيه؟

قال له الرجل وهو يبتسم كاشفاً عن أسنان نخرة:

– متخافش انا كنت صاحب بابا، وأعرف انك راجل وتتحمل المواقف الصعبة.

بدا القلق قليلاً على الصغير وهويقول:

– في حاجه والا إيه؟

تظاهر الرجل بالأسف قليلاً وهو يجيبه:

– والدتك عملت حادثة بسيطة وهي في المستشفى دلوقتي.

اتسعت عينا (حسام) ذعراً،وهويهتف:

– بتقول إيه؟

وضع الرجل يده على كتفه وهويقول بلهجة مطمئنة:

– اطمن هي بخير بس عاوزه تشوفك.

كاد أن يدخل الصغير في نوبة بكاء، لكن الرجل فتح باب السيارة، وهو يحاول التهدئة من روعه، قائلاً:

– متخافش يا حبيبي.

دلف (حسام) ببراءة الأطفال إلى السيارة، متناسياً تحذيرات والدته بعدم الركوب مع أي شخص غريب، أو أن خوفه وقلقه على والدته قد جعلاه ينسى هذا، بينما ابتسم الرجل في استهجان بعد أن أطاعه الصغير بسرعة، وأغلق الباب وراءه، ثم وثب في مقعد القيادة، وانطلق بها..

***

5

أشارت عقارب الساعة إلى الثانية عشر ظهراً،بينما يجلس (عمر) على تلك المائدة بأحد المطاعم المشهور بوسط القاهرة، ينتظر (نوال) بعد أن ضربت له هذا الموعد، وبعد أن استطاع الإفلات من (سامية) لم يكن (عمر) وهو الشاب المجتهد الذي يعول والدته بعد وفاة والده يتخيل أن تنشأ هذه العلاقة بينه وبين أي امرأة أخرى..

لحظة من لحظات الضعف البشري لشاب في كامل صحته، بلغ الثامنة والعشرين من عمره منشغلاً في حياته، من تزويج أخته ورعاية والدته ومحاولة جمع مبلغ يكفيه من المال لمواجهة متطلبات الحياة من زواج ومعيشة، لحظة سقطت فيها إرادته أمام شهواته بعدما مهدت (سامية) الطريق إليه، وجعلته يفرغ طاقاته المكبوتة في جسد لا يشبع ولا يرتوي..

لذلك فمن بعد أن رأى (نوال) وهو يشعر أنه بدأ يفيق من تلك اللحظة التي ألمت به، وأنه عندما يقع بصره على المعلم (جودة الدكش) الآن يدرك بمدى حقارته ومدي ما وصل إليه..

يجب أن يطوي هذه الصفحة السوداء من حياته، وأن يعود نظيفاً كما كان، وأن يقطع علاقته بـ(سامية) لكن رويداً رويداً؛ لأنها لن تستطيع أن تتقبل الأمر بهذه السهولة خاصة بعد رد فعلها الأخير عندما طالبها بتخفيف لقائهم،ومن يدري ماذا يمكن أن تفعله..

لا يمكن التنبؤ دائماً برد فعل النساء عند غضبهن..

يتذكر مرورها يومياً من أمام ورشته بنفس طريقتها، يدق قلبه مع كل خطوة من خطواتها، لا تنظر إليه مباشرة لكنه كان يشعر بما تختلس النظر إليه بطرف عينها سريعاً، لا ينبس ببنت شفة بل يراقبها فقط حتى تختفي عن ناظريه، سارقة معها قلبه وعقله..

إلى أن قرر مكالمتها مهما حدث، فوقف ينتظرها على باب الورشة في نفس الموعد الذي تعود منه يومياً من الكلية، فابتسمت ابتسامة خافتة وهي تخفض بصرها إلى الأرض عندما شعرت به يقترب منها ولم تحاول النظر إليه، وهي تسمعه يقول:

– صباح الخير..أخبارك إيه النهاردة؟

تلعثمت في البداية وقد راودها شعور بعدم الرد عليه في البداية، إلا إنها وجدت نفسها تهدأ من مشيها وتنظر لساعتها وهي تقول بصوت خفيض:

–قصدك مساء الخير احنا الساعة اتنين الضهر..عموما أنا كويسة وشكرًا ليك مرة تانية على اللي عملته معايا امبارح.

ابتسم بدوره وهو يرد عليها قائلاً:

–أنا صباحي ابتدى دلوقتي لما شوفتك..العفو يا ستي ده واجب علينا احنا المفروض جيران.

–أنا أول مرة أشوفك هنا.

–أنا ساكن قريب منكم بس لسه جاي الورشة بتاعت خالي دي قريب، حاكم محسوبك خريج حقوق لكن ميكانيكي أد الدنيا.

رفعت حاجبيها اندهاشاً وهي تقول:

–حقوق وميكانيكي!!تيجي إزاي دي؟

–الموضوع عاوز له شرح شوبه ومش هاينفع نحكيه واحنا ف الشارع كده.

أيقنت غريزة الأنثى ما ينتويه، لكنها تظاهرت بعدم الفهم كعادة الأنثى أيضاً في كل مكان وزمان، وهي تقول:

–أمال إيه؟

تلفت حوله ليتأكد أن أحداً في الشارع الذي يسير الناس به وكل في حال سبيله لا يستطيع سماعه، وهو يهمس لها:

– في كوفي شوب حلو في وسط البلد بيعمل شوب مانجا مالوش حل.. ممكن في يوم الصبح كده نروح هناك نشرب المانجا واقولك حكايتي.

ازدادت ابتسامتها اتساعاً وجاهدت كي لا تفلت منها ضحكة، غير مصدقة في الوقت نفسه أنها تتكلم مع شخص غريب عنها وهي

تقول:

–أفكر..ممكن تكون الحكايه وحشه.

–صدقيني لو ماجيتيش وسمعتيها ها يفوتك كتير.

–بردو أفكر.

–إتفقنا.

لم تكد تبتعد عنه بضع خطوات حتى سمعته يقول:

–لحد دلوقتي ماعرفتش اسمك إيه؟.

أجابته دون أن تلتفت إليه:

–لو عجبتني الحكايه هاقولك.

تلاشت هذه الأفكار من رأسه بعدما لمح (نوال) تأتي من خلف زجاج المطعم..

رقيقة كنسمة في يوم حار، متألقة كماسة وسط الصخور، جميلة كالشمس وقت غروبها، عذبة كنهر لم يطأه بشري..

ابتسمت بعدما رأته عند ولوجها للمطعم، فنهض لاستقبالها مبادلاً إياها الابتسامة بابتسامة عريضة، وتحرك ليحرّك لها مقعدها لتجلس وهو يقول:

–مساء الخير بقا المرا دي..اتفضلي.

ردت عليه وهي تتخذ مكانها على مقعدها:

-مساء النور..شكلك بتتعلم بسرعة.

عاد إلى مقعده مطلقاً ضحكة قصيرة، وهويقول:

-مفيش حد بيفضل غبي على طول.

أطلقت بدورها ضحكة قصيرة قائلة:

-هنشوف.

أشار للنادل وهو يسألها:

-تشربي ايه؟ ولا تحبي تتغدي؟

-احنا اتفقنا يا دوبك على شوب مانجا، هي حكايتك هتطول للدرجة دي؟

-لو هحكيلك حكايتي كلها يبقى هانقعد لغاية العشا.

-لا خلينا في المانجا أحسن.

-ماشي..إتنين مانجا لوسمحت.

ثم التفت إليها مطالعاً عينيها العسليتين اللتين أغرقتاه في بحرهما من أول مرة قائلاً:

-طب مينفعش قبل الحكاية أعرف اسمك؟

-ممكن تحمن.

نظر إلى السقف متظاهراً بالشرود وعقد حاجبيه قائلاً:

-أوك..أعتقد إنه مش هيخرج عن الأسماء دي.. ياسمين.. عبير..

شذى.. نسمة.

قاطعته ضاحكة:

-للدرجة دي ريحتي حلوة؟

-للدرجة دي ابتسامتك بتعمل فيا كدة.

احمرت وجنتاها خجلاً وأمسكت سلسلتها الذهبية التي تتدلى حول عنقها، وهي تخفض بصرها مما جعله يقول:

-تعرفي إني بقالي كتير مشوفتش واحده بتعمل كده دلوقتي.

قالت بصوت خفيض:

-بتعمل إيه؟

- بتحمر خدودها وتحلو أكتر ماهي حلوة..الحاجات دي انقرضت وبعد مشوفتك عرفت إن الشباب دلوقتي فايتهم كتير.

- المفروض إننا هنسمع حكايتك مش حكايتي.. وعموما اسمي (نوال).

-ماختلفناش كتير..نوال أعتقد معناه العطاء.

رفعت حاجبيها مندهشة، وقالت:

-صح.. إنت أول واحد يعرف معنى اسمي بسرعة كدة، ميكانيكي مثقف فعلًا.

- وانتي أول واحده أتشد ليها كده.

ازداد احمرار وجنتيها وإن تركت كلماته أثراً رقيقاً في وجدانها، بينما هو يقول:

– عامة مش لازم تقعي في نفس الغلطة اللي بيوقع فيها ناس كتير..الثقافة مختلفة عن التعلـم والذكاء والأخلاق كل حاجة مستقلة وان كان فيه خيط رفيع بيربط بينهم، يعني أعرف مهندس صاحبي ميعرفش مين هو تشرشل.

رفعت عينيها إلى أعلى وبدت عليها ملامح التفكير قبل أن تقول:

– آه أنا فاكره إنه ليه علاقة بالحرب العالمية التانية تقريبًا.

– طيب كويس إنك فاكره حاجة عنه أنا صاحبي ده كان فاكره من عبدة الشيطان.

أطلقت ضحكة قصيرة، بينما عقد كفيه أمامه على الطاولة، وهو يستطرد:

– نبتدي بقا منين الحكاية..أنا اسمي عمر محمد العطار..28 سنة من القاهرة أصلا.. ليسانس حقوق بتقدير جيد جدا دفعة 2002.. أبويا كان موظف على أد حاله لكنه ربانا وعيشنا كويس لحد ما توفاه الله بعد تخرجي بكام شهر.. ليا أخت واحده اسمها (وفاء) جوزها اتوفى وسايبلها (حسام) ربنا يخليهولنا، طبعًا بعد ما اتخرجت كالعادة حاولت أدور على شغل ما لقيتش، رجعت لورشة خالي اللي كنت بتزها في الجازات لما كنت صغير خصوصا إنه كان بيدوّر على حد يمسكها بعد ما سابه الصنايعي.. المفروض إنها كانت حاجه مؤقته لحد

ما ربنا يكرمني وأقدر اشتغل ف مجالي بتاع المحاماة، لكن مع مرور الوقت والأيام اكتشفت إن الشغلانه دي هي اللي ليها مستقبل وهي اللي قدرت تخليني أساعد أختي في جوازها، واصرف على البيت وأراعي والدتي ربنا يخليهالي،وأجهّز شقتي عشان لما بنت الحلال اللي حاسس إني لقيتها واللي ربنا هايتليها بيّا.

أطلقت ضحكة قصيرة عند هذه النقطة، بينما وصل النادل بكوبي المانجو وضعهما وانصرف، وهي تقول:

–ربنا يكون ف عونها.

نظر إلى عينيها مباشرة وهو يقول:

– أو يكون ف عوني وأقدر استحمل الجمال ده كله.

خفضت عينيها وازداد احمرار خديها، وأمسكت بكوب المانجو وأخذت ترشف من الماصة الخاصة بها رشفات قصيرة، قبل أن تتذكر شيئاً فقالت له:

–الحقيقة يا (عمر) قبل ما نكمل كلامنا كان فيه حاجة مهمة جدا عاوزة أقولهالك.

– خير يا ترى.

ازدردت لعابها بصعوبة محاولة منع الغصة التي بحلقها، وهي تقول:

–الموضوع ما بيننا مش هايبقى بالسهولة دي.

– آه قصدك على قريبك اللي كان ماشي معاكي ده.

رفعت حاجبيها مندهشة وهي تقول:

–ده انت مراقبني بقا.

قال بسرعة:

–لا أبدًا دي كانت صدفة.

هزت رأسها موافقة على كلامه.. وقالت:

– هوفعلًا قريبي وأهلنا كلهم متوقعين إن الطبيعي ف الآخر إننا نبقى مع بعض، بس مش هي دي المشكلة.

– أومال إيه بس!!..قلقتيني.

أطلقت تنهيده بعد أن حزمت أمرها لتلقي القنبلة:

– أنا مسيحية.

***

إهالت كف (بسيوني) الغليظه على ذلك الباب الخشبي بالطرقات، لتمض ثوان معدودة قبل أن تفتح الباب امرأة في أوائل الثلاثينات، ترتدي قميص نوم يكشف من جسمها أكثر مما يستر، يمتلأ وجهها بالأصباغ، ولم تكد ترى (بسيوني) حتى أفسحت له الطريق وهي تقول:

– أهلًا أهلًا (بسيوني) باشا.. آنستنا وشرفتنا.

دلف (بسيوني) إلى تلك الشقة الحقيرة، التي كان يضجع في صالتها وعلى أريكتها عدد لا بأس به من بائعات المتعة، ألقى عليهن

نظرة لامبالية وهو يسأل تلك التي فتحت له الباب:

– أومال فين (شلبي)؟

لم يكد ينهي عبارته، حتى سمع صوتاً مداهناً بجواره يقول:

– دور عليه تلقاه باللي عينيك شايفاه.

التفت (بسيوني) ليواجه (شلبي). كان (شلبي) مثالاً للقوّاد كما ينبغي وكما كان أسلافه من قبل عبر عصور التاريخ بقامته المتوسطة، وشعره الناعم المسترسل على كتفيه، ونظرة عينيه الناعسة الماكرة، وقميصه الزاهي الألوان الذي يفتحه حتى منتصف صدره، مبيناً السلسلة الذهبية التي تتدلى من عنقه، بينما مد يده المزينة بالخواتم ليصافح (بسيوني) الذي قال له:

– عامل إيه يا (شلبي)؟

– زي الفل يا باشا..عايشين على حسك.

يميل عليه (بسيوني) ويقول بصوت خافت قليلاً:

– وأخبار الأمانة اللي وصيتك عليها إيه؟

أشار إليه (شلبي) ليتبعه إلى أحد الغرف، وأحد الغانيات تتبعهم بقولها هاتفة:

– إيه يا باشا غيّرت الصنف ولا إيه؟

وأعقبتها بضحكة رقيعة شاركتها فيها باقي النساء، فقال لها (بسيوني) وهو يلحق بـ(شلبي)..

ـ هخلص بس الحوار ده وأرجع اوريكي يا....أمك.

ردت واحدة أخرى وهي تضحك:

– انت على ماتخلص الحوار ده مش هايكون فيك حيل.. خلي بالك منه ياريس، أحسن (بسـوني) باشا تبعنا بردو.

ضحك (شلبي) بدوره وهو يجذبه من ذراعه قائلاً:

– سيبك من ولاد ال.... دول.. خلينا ف حوارنا دلوقتي.

تبعه إلى الحجرة وسط ضحكاتهم الساخرة، وهو يتمتم:

– وحياة أمي لوريكي يا (كريمة).

أغلق (شلبي) عليهما الباب، وهويقول له:

– خلاص يا باشا كله تمام.. (بيومي) جاب الأمانة والواد وصل بالسلامة.

هز (بسيوني) رأسه معلناً عن رضاه قائلاً:

– زي الفل..كلها كام ساعة كدة وتيجي لي برجليها.

جلس (شلبي) على كرسي وهويشعل سيجارة، ويقول له:

– مش عارف عامل الهليله دي كلها ليه.. ده أنا عندي بنات برقبتها.

زمجر (بسيوني) وهويأخذ السيجارة من بين أصابعه، وسحب نفساً عميقاً وهو يستلقي على الكرسي المقابل له، ونفث الدخان بقوة وهو يقول:

– مفيش حد زيها يا (شلبي) دي حاجة عمرك ما هاتفهمها.

لوح (شلبي) بذراعه وهو يقول:

– كلهم زي بعض يا باشا اسألني أنا.. أنا بقالي أكتر من عشر سنين في الكار ده وقابلت واتعاملت مع ستات من كل صنف ولون بعدد شعر راسك، وطلعت منهم بحكمة واحدة.

يقول (بسيوني) ساخراً:

– اتحفني بحكمك يا حكيم عصرك وأوانك.

اضطجع (شلبي) على كرسيه وهو ينظر إلى سقف الغرفة، ويقول بلهجة العالم ببواطن الأمور:

– إذا انطفأ النور تساوت كل النساء.

وأعقبها بضحكة عابثة قبل أن ينهض وهو يخبط بيده على كتف (بسيوني)، الذي قال له:

– وهو انت فاخ غير ف كده .. انت عايش طول عمرك وسط المومسات ومش هاتحس بالحاجات الروحية دي.

تلاشت الابتسامة من على وجه (شلبي)، ثم يضع ظهر كفه على جبهة (بسيوني) وهو يقول:

– انت شكلك سخن والا إيه يا باشا؟ روحية إيه..روحية مستياك في الأوضة اللي جنبينا.

وانطلق بضحكة ساخرة أخرى، فأزاح (بسيوني) يده، ونهض

بدوره من على الكرسي، وهو يقول:

– جرى إيه يا ولاد ال.... ما تخفوا عليا شوية، عمومًا خلى بالك من الواد كويس مش عاوز أي حاجة تحصّله.

– من عينيا يا باشا.

ثم نهض إلى الباب وهو يكمل:

– أما انت بقى يا (كريمة) ليلتك طين معايا.

غادر الغرفة متجهاً إلى الصالة، وذهنه كله يمتلأ بصورة (وفاء) ممنياً نفسه برؤيتها الليلة بعد أن ينتهي من (كريمة).

ستكون ليلة سوداء عليها بحق!

***

أعمال بسيطة لكنها تودّي إلى الجحيم..

هذا ما صار (هشام) يفعله بالظبط..

منذ أن استطاع الوقوف على قدميه بعد منتصف الليل في ذلك اليوم الذي زاره فيه (عماد)، وهو يشارك في جعل حياة الناس جحيماً..

يتذكر عندما قادته خطاه إلى مسكن (عماد) بكامل صحته وعافيته..

يدلف من خلال باب الشقة الذي انفتح بعدما طرقه دون أن يجد أحداً خلفه، يتجاوز دهشته التي لن تكون بأكثر دهشة من ساقه التي

صارت سليمة تماماً رغم مرور ساعات على كسرها، يجيل بصره في أنحاء المكان الذي تفوح منه رائحة بخور خبيثة، وتنتشر في بعض أركان حوائطه رموز غير مفهومة باللون الأحمر، يبتلع لعابه وقد غزت عموده الفقري قشعريرة باردة، يجفل مذعوراً بعد أن سمع صوت (عماد) يناديه من إحدى الغرف:

– تعال يا (هشام).

يتقدم إلى داخل الغرفة التي يجلس بها الساحر على أرضية الحجرة، مرتدياً عباءة قاتمة اللون غريبة المنظر، يرمقه بعينيه الناقبتين وهو يسأله:

– أخبار رجلك إيه؟

يربت عليها (هشام) ويهزها، وهو يقول:

– الحمد لله بقت كويسه أوي.

يسأله (عماد):

– الحمد لله!!.. دعيت ربك عشان يشفيهالك؟

– لا.. بس الناس هي اللي كانت بتدعيلي وأكيد ربنا استجاب لدعائهم.

– وليه ميكونش أنا اللي عالجتهالك.

تردد (هشام) قليلاً وشعر بأفكار متناقضة في ذهنه، وهو يجيبه:

– معرفش حد غير ربنا اللي بيشفي.

– تحب طيب أرجعلك رجلك زي الأول.

تراجع (هشام) متوتراً وهو يقول:

– لا الله يخليك..أنا كده كويس.

– خلاص يبقى لازم تعرف إني بإيدي أعمل فيك أي حاجة زي ما أنا عاوز لو مسمعتش كلامي.

أدرك (هشام) أنه وقع في يد شخص كما يقولون (محاوي)، وقد أكد ذلك الجو الشيطاني المحيط به داخل الشقة ظنونه، وأنه ليس من الحكمة العبث معه خاصة بعدما تأكد أنه كان سبباً في شفائه من الإصابة التي ألمت به..

ثم ما الذي سيخسره لو أطاعه؟

ليكمل معه حتى النهاية ويرى ما الذي يريده منه..

– طب أعرف انت عاوز مني إيه بالظبط؟

– حاجات بسيطة.. هديك ورق وأحبال وتخبيهم أو تدفنهم ف المكان اللي أقولك عليه.

– أعمال قصدك يعني!! .

ابتسم (عماد) ابتسامة باهتة، وهو يقول:

– تقدر تقول عليها كده.. وفي المقابل مش هأذيك.

– طيب وشغلي مع المعلم (جودة).

– لازم تكمّل شغلك زي ما أنت بس لما أعوزك هتجيلي ..بس

إياك حد يعرف حاجة م اللي بيحصل هنا.. فاهم ولا لأ؟

ماذا أخذ (هشام) من البشر في حياته غير الأذي والقسوة وانعدام الرحمة؟..

ماذا سيضيره لو تعذبوا قليلاً كما تعذب؟..

بالعكس لو أطاع (عماد) فيمكنه الاستفادة منه بعد ذلك في أي أمور أخرى، سيكون خادمه المطيع الذي لن يرفض له سيده طلباً بعد ذلك، سينحني لتقبيل قدميه لو استلزم الأمر مقابل أن يعرف من هما والديه، وأن يذيق (سناء) مديرة الملجأ ربع ما كان يقاسيه..

إن هذا أقصى ما كان يحلم به..

القدر يقوده إلى طريق جديد مليء بالمسرّات..

لذلك فقد افتغر ثغره عن ابتسامة، وهو يقول لسيده الجديد:

– أمرك يا (عماد) باشا.

يقول له (عماد) صارماً:

– بلاش باشا دي.. قولي يا مولانا.

يقول (هشام) بلا تردد:

– أمرك يا مولانا.

لا يستطيع (هشام) رؤية (مطرون) الذي كان يراقب هذا الحوار الدائر، والذي شاهد هذا الأمر يتكرر كثيراً منذ أن سخر الخدمة السحرة، وعاشر عالم الإنسان الذي يثبت له يوماً بعد يوم أنه لا

حاجة بمن يوسوس لهم اليوم، فقد تخطى بعض البشر قدرات الشياطين كثيراً، وصار من الأولى أن يتعلم الشياطين أساليب الشر منهم..

يفكر (مطرون) في كيفية الإفلات من قبضة (عماد) وتعاويذه القوية، يتخيل نفسه وقد أزالت هذه الأغلال منه وعادت إليه قواه الحقيقية، ليستعيد سطوته وهيبته السابقة بين أقرانه وقبيلته، التي يتبعه عدد محدود منها حالياً بأمر الحاكم أيضا ليساعدوه في تنفيذ أوامر السحرة، لكنهم لا يستطيعون مساعدته في التخلص من قيوده وإلا حكم عليهم بالموت، يتلذذ بالتفكير فيما يمكنه فعله بـ(عماد) الذي يسيطر عليه سيطرة تامة كما يسيطر حالياً على (هشام).

وهنا قفزت الفكرة إلى رأسه بلا أدنى مقدمات..

إنه (هشام) هو من سيستطيع مساعدته في تخليصه من أغلاله، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، يجب أن يبتكر خطة شيطانية تليق به ليستطيع إنجاز هذا الأمر، كما أنه حتى إذا استطاع إقناعه سيتطلب الأمر وقتاً لتنفيذ ما يطلبه..

وبينما يغادر (هشام) المكان يلتفت (عماد) إلى الأمير السابق والعبد الحالي، يقول له وهو ينهض:

– لقينا اللي إحنا عاوزينه.. دلوقتي نبدأ نعمل العقد المطلوبة.

يضع بخوراً على ذلك القدر الذي يحتوي على الفحم المشتعل، تنطلق الأبخرة لتملأ المكان؛ فيحضر خيلاً رفيعاً وبضع شعيرات أتت بها إحدى الآثمات له من رأس التي تريد عمل السحر لها، يجلس أمام

القدر ويتمتم بتعاويذ واضعاً الخيل أمام شفتيه، يقوم بعقد الخيل مع الشعيرات وينفث عليهما ليناهما جزءاً من لعابه، يأخذ رماداً من الفحم المشتعل ويضعه مع الشعيرات والخيل، يستمر في هذا العمل إلى أن ينتهي من عمل سبع عقدات، يبتسم (مطرون) وقد أدرك أن بشرياً جديداً سينساله الأذى..

سحر العقد أحد الأساليب المعروفة التي يعمد إليها السحرة والمشعوذون، ليس فقط للتفريق بين المرء وزوجه، لكن أيضاً بين الأب وابنه أوبين الأم وابنها، أو الأخ وأخيه وغير ذلك، وقد أضاف الرماد للعقدة حتى يحدد نوعية خادم السحر الذي يكون من النوع الناري، لذلك لا يستطيع أحد التخلص من العقدة بالنار؛ لأنه يقوي خادم السحر ويؤذي من يحرقها..

السحر الناري يجمع بين أنواع سحر كثيرة فهو سحر التفريق والجنون وإثارة المشاكل بين أفراد الأسرة الواحدة، هكذا يتنافس السحرة ويتفننون فيما بينهم لجعل التفريق بين البشر تفريقاً لا رجعة بعده، هكذا يقومون بإرضاء الشيطان لجعلهم أكثر قوة وتأثيراً بين أقرانهم..

هكذا يضمن الساحر مكاناً مميزاً لنفسه في قاع جهنم..

***

6

(المجد لك يا مظهر النور، المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة. نسبحك نباركك، نسجد لك نمجدك، نشكرك لأجل عظيم جلال مجدك).

انطلقت الأصوات في الكنيسة بتلك الترنيمة، ورددت شفاه (نوال) الكلمات بطريقة آلية مع باقي الأفراد، ولكن عقلها كان مشغولاً في اتجاه آخر..

ما الذي حدث لها منذ أن شاهدت (عمر)؟..!

كيف استطاعت نسيان كل شيء وألقته خلف ظهرها، منذ أن اخترقت نظرته الحزينة عينيها ونفذت إلى روحها، حتى بعد علمها أنه مسلم؟..

إنها لا تفوّت قدّاساً مع عائلتها طوال سنوات عمرها الاثنين والعشرين، وتحافظ على صلواتها وتتمسك بعقيدتها جيداً، لكن يبدو أن ما حدث يتخطى جميع القوانين..

العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في مصر معقدة جداً ككل شيء بها، منطقة ألغام يخشى الجميع المرور بها، ظاهرها رائع وباطنها مغلف بطبقات من التعصب، كبركة هادئة من الماء يتوتر سطحها وينور إذا قذفها أحدهم بقالب صغير من الحجارة..

(أيها الرب الإله يا رافع خطيئة العالم ارحمنا تقبل تضرعنا أيها الجالس عن يمين الآب وارحمنا. لأنك أنت وحدك قدوس أنت وحدك الرب يسوع المسيح في مجد الله الآب آمين).

تعرف أنها موشكة على الدخول في قلب الجحيم إذا ما انصاعت لقلبها ومشاعرها، التي انقلبت رأساً على عقب رغم أن اللقاء فعلياً لم يتعد الدقائق الخمس مع شخص لا تعرف شيئاً عنه بعد إلا أنه مسلم..

تدرك أن أباها طيب القلب وأمها الحنونة وحتى أختها المشاكسة الصغيرة (لينا)، سيصابون بصدمة إذا تطور الأمر أكثر بينها وبين (عمر)، والأدهى من هذا هو(بيتر) ابن عمها الذي تربت معه، ويحاول التقرب إليها لتصبح زوجته الأبدية كما ينوي وكما يتوقع جميع أفراد عائلتها..

تشعر أن عليها ألا تنقاد إلى الطريق الذي يمهده لها قلبها، وأن تتسلح بحكمتها وعقلها الذي طالما وثقت به، وأن تتذكر أن هذه العلاقة التي توشك أن تبدأ لن تكون نهايتها بالنهاية السعيدة..

تنظر بطرف عينيها إلى أختها الواقفة بجوارها والتي تشبهها كثيراً، وإلى أبيها (إبراهيم) بملامحه الطيبة ونظارته التي قاربت على أن تكون

عضواً أساسياً من ملامحه، وإلى أمها التي يزين الصليب الذهبي عنقها، وهم يتلون الترنيمة مع باقي أفراد الكنيسة، وتتخيل حجم المشكلة التي سيقعون فيها بسببها..

***

(في كل يوم أباركك وأسبح اسمك إلى الأبد وإلى أبد الأبد.. لتكن يا رب رحمتك علينا كمثل اتكالنا عليك.)

تنفض كل هذه الأفكار من رأسها، وهي تشيح ببصرها عنهم، لتجد (بيتر) على الجهة الأخرى، وهو ينظر إليها تلك الابتسامة السمجة التي لا تتناسب مع بنيانه القوي، فترفرت في ضيق لتعود صورة (عمر) إلى ذهنها..

تتذكر تلك اللحظة التي صارحته فيها بأنها مسيحية، متوقعة أن يصاب بصدمة، أو أن يأتي برد فعل مبالغ فيه، لكنها وجدته يتغلب على هذا الأمر كأنه لم يحدث، وهو يواصل النظر في عينيها قائلاً:

– إيه المشكلة يا ستي..الدين لله والوطن للجميع.

انعقد حاجبيها دهشة لهذا الرد غير المتوقع، وهي تقول:

– أنا كمان بالنسبالي معنديش مشكلة رغم كل الاختلافات اللي بيننا وده اللي خلاني اجيلك، بس المفروض الواحد في حاجة زي دي ميبقش لنفسه وبس.

– أكيد.. مينفعش نتسرع ف حاجة زي دي رغم إني عارف إن والدتي هتوافق ف الآخر، لأنها تتمنالي دايمًا السعادة والرضا.

– ممكن يكون الموضوع عندك إنت سهل لكن عندنا الوضع صعب جدًا إن ماكانش مستحيل، أنا بابا وماما متدينين وميبقوتوش قداس، ده غير أن العيلة كلها متوقعة إني أستقر مع (بيتر) ابن عمي اللي انت شوفته معايا ده، و(بيتر) ده لوحده مصيبة تانية.. مش عارفة بصراحة أعمل ايه؟

زفر معبراً عن ضيقه، وهو يقول:

– إحنا دايمًا مجتمعنا بيعقّد كل حاجة كده.

ابتسمت ابتسامة خافتة قائلة:

– أهلًا بيك في مصر.

– صدقيني يا (نوال) أنا عمر ما حاجة زي دي حصلتلي ف حياتي قبل كده.. الواحد دايمًا كان بيتريق على المسلسلات والأفلام بتاعت الحب من أول نظرة، لكن لما شوفتك معرفش ايه اللي جرالي.. حاجه غريبه شدّتني ليكي، حاجه أكيد عدّت كل الفروق والاختلافات اللي بيننا، حاجه عدت كل عاداتنا وتقاليدنا.. حاجه حلوه وجميله لكن في نظر الكل حوالينا جريمة.

ترددت قليلاً وبدا إنها تريد أن تقول شيئاً لكن حياتها يمنعها، ثم حسمت أمرها ووجدت نفسها تقول له:

– صدقني أنا كمان من أول مره شوفتك فيها حسيت بنفس إحساسك ده.. أنا وقتها نسيت إني مسيحية وإنك مسلم، وأن المفروض ما أجيلكش ولا أقابلك ولا أكمل في الموضوع ده أصلا..

بس لقيتني غصب عني باجي عشان أشوفك وأسمعك وأعرفك اكتر.

شعر بالسعادة لأنها تبادله نفس إحساسه فقال لها:

– أنا عمري ما اتمنيت أكون مع أي حد تاني زي ما كنت عاوز أبقى معاكي دلوقتي.

– وأنا كمان.

قال لها بلهجة حاسمة:

– خلاص يبقى محدش هيقدر يمنعني إني أشوفك تاني لحد ما نقدر نلاقي حل لوضعنا ده.

– أنا خايفه بس حد يشوفنا أو يعرف بالموضوع ده.

– ما تقلقيش أدينا ف مكان بعيد خالص عن منطقتنا.

زفرت في ضيق وهي تقول:

– مش عارفه بصراحة جناننا ده هيودينا لفين؟

– الحب فعلًا جنان وأنا دلوقتي أجن واحد في الكرة الأرضية.

أفاقت من ذكرياتها عند هذه النقطة، ووجدت أختها (لينا) تلكزها بمرفقها في وسط الترانيم، وهي تقول لها بصوت هامس حتى لا تثير انتباه أحد حولهم:

– انتي بتضحكي على إيه؟

أدركت (نوال) أن هناك ابتسامة عريضة تزين وجهها، فحاولت رسم الجدية على ملامحها لتعود إلى أرض الواقع، وهي تهمس بدورها:

– مافيش افتكرت حاجة ضحكتني على (بيتر).

***

(يارب إليك لجأت فعلمني أن أعمل رضاك؛ لأنك أنت هو إلهي. لأن من قبلك هي عين الحياة وبنورك نعاين النور. فابسط رحمتك على الذين يعرفونك. آمين.)

انطلق رنين الهاتف المحمول الخاص بـ(بسيوني)، بينما كان منهمكاً في ممارسة انتقامه من (كريمة)، لذا فقد فوجئت به ينهض من عليها ويمد يده ليلتقطه، فقالت وهي تحاول جذبه إليها مرة أخرى:

– يعني هي القيامة هتقوم..رايح فين كده؟

أجابها لاهثاً وهو يلقي نظرة على شاشته المضيئة:

– مستني تليفون مهم.

قالها وهويجيب المتصل وسط اعتراضات (كريمة):

– أيوه.

سكت لثوان منصتاً، وإن لاحظت أن عينيه كادتا تتألقان، وأن ابتسامة كابتسامة الذئب الذي نال فريسته ارتسمت على جهة، وهو يقول:

– زي الفل.. شويه وهاجيلك..مع السلامة.

أغلق الهاتف وقفز ليرتدي ملابسه، فقالت له (كريمة) مستنكرة وهي لا تزال مستلقية عارية تماماً:

– هو إيه دا؟.. رايح فين يا باشا وسايبني كده.

أجابها وهو يرتدي بنطاله:

– شغل يا روح أمك هيكون إيه يعني؟ ·

هضت بنصفها العلوي مستندة إلى السرير، ومدت يدها لتلتقط سيجارة من علبتها على المنضدة وهي تقول:

– وهو من إمتى الشغل كان بيقوّمك كده؟

أولاها ظهره وهو يرتدي قميصه قائلاً:

– هو أنا أخلص من (سميحة) تطلعلي انتي.. صدق ابن المرة (شلبي).

أشعلت سيجارها بالقداحة وأخذت نفساً عميقاً، ورفعت رأسها لتنفثه قائلة:

– انت اتغيرت كتير يا باشا..حتى النهاردة منتاش زي الأول.

علق مسدسه في جرابه وارتدى قبعته، وهو يقول:

– اطلعي من دماغي دلوقتي يا (كريمة) خلينا نفوق لأم الشغلانة دي.

هزت كتفيها مستهترة دون أن تجيبه، بينما تأكد هو من مظهره وهندامه ثم غادر الشقة مسرعاً، متجهاً إلى مركز الشرطة التابع له..

كان يهيئ نفسه على خطته البسيطة التي حققت وستحقق له ما يريد، خاصة بعدما وصل إلى مركز الشرطة وأوقف السيارة وترجل

منها، ولم يكد يدلف من الباب حتى استقبله (وحيد) الأمين رفيقه، وهو يقول له هامساً:

– موجوده جوه يا باشا.

ارتسمت ابتسامة ذئبية على وجهه وهو يفتل شاربه الكث، ويقول:

– عفارم عليك يا وحوح.

دلف إلى مكتبه لتقع عينيه على (وفاء)، كانت عيناها محمرتين من شدة البكاء، ولم تكن قطرات دموعها على خديها قد جفت بعد، وإن زاد هذا من جمالها في نظر (بسيوني) ورغم كرهها واشمئزازها من (بسيوني)، لكنها لم تكد تراه حتى وقفت وهي تقول له:

– الحقني الله يخليك.. هما قالولي انت الوحيد اللي تقدر تساعدني.

ابتسم لها مهدئاً وهو يدور ليجلس خلف مكتبه، ثم يخرج هاتفه المحمول ومفاتيحه ليضعها على سطح المكتب قائلاً لها:

– استريحي يا مدام.. خير بس.

لم تجلس وهي تقول له بصوت أقرب إلى البكاء:

– (حسام) ابني النهاردة روحت عشان أجيبه من المدرسة زي كل يوم ما لقيتوش، ولما سألت عليه فيه ناس قالتلي إنه ركب ميكروباص مع واحد.. أرجوك تدوّر لي عليه، انت تعرف كل سواقين الميكروباص ف المنطقة، أنا مستعده أعمل أي حاجة بس ابني يبات ف حضني النهاردة.

أدرك بأنها كالغريق الذي يتعلق بإبرة وقرّر أنه لن يجعل هذه الفرصة تضيع من بين يديه، وهو يقول لها:

–ما تقلقيش يا مدام.. ابنك لو تحت طقاطيق الأرض هجيبهولك ده انا الأمين (بسيوني) اللي مفيش حاجة تخفى عليه.. (حسام) زي ابني بالظبط.

كانت لهفتها ولوعتها تفوق أي وصف وتتجاوز أي كلام لوكان قد قيل لها في الظروف العادية لبصقت على وجهه، وهو يصف ابنها وابن زوجها الراحل بأنه مثل ابنه، لذلك فقد قالت له:

– أنا مش عارفه أشكرك إزاي.

ابتسم ابتسامة لزجة كعادته وهو يقول لها:

– إحنا بنؤدي واجبنا وكل اللي عاوزينه انك تكوني كويسة..ثم منا قولتلك ده زي ابني، وغلاوته لازم يبات ف حضنك النهاردة.

لم تجد تفسيراً لذلك الشعور المتناقض الذي يكتنفها في هذه اللحظة، ما بين لوعة وألم وحزن واشمئزاز وأمل وتضرع، لكنها وجدت نفسها تقول:

– ياريت أنا مليش غيره ف الدنيا دي.

– واحنا روحنا فين بس..انتي بس تأشري واحنا هانكون تحت أمرك.

– شكرًا جزيلًا.

قال لها بلهجة الواثق:

– طيب تقدري تسيبيلي رقم تليفونك وعنوانك وان شاء الله أكلمك وأطمنك عليه وأجيبهولك لحد باب البيت.

أخذت قلماً وورقة وخطت عليه عنوانها ورقم هاتفها، وناولته إياه فألقى عليه نظرة سريعة، ووضعها في جيب قميصه قائلاً:

– ما تعرفيش زيارتك لينا ف المركز غالية أد إيه، ولو اني كان نفسي تكون ف ظروف أحسن من كده.

استعدت لمغادرة المكان وقد تغلب عليها اشمئزازها مؤقتاً منه وهي تقول:

– ياريت بس تصدق ف كلامك وتجيبلي ابني النهاردة.

مال على سطح مكتبه ناحيتها قائلاً بلهجة حاول أن يجعلها جادة لكنها جاءت لزجة:

– هاتشوفي وهاتعرفي مين هو (بسيوني) وممكن يعمل إيه عشان ينول الرضا بس.

غادرت المركز والمكان بأكلمه، فاتسعت ابتسامة الذئب على شفتيه، واسترخى على مقعده وهو يخرج الورقة من جيب قميصه ليطالعها، ويطبع قبلة عليها وهو يقول:

–يابن الإيه يا (بسيوني) كل حاجة ماشية زي الفل وأكتر..هانت.

ثم مد يده ليلتقط هاتفه النقال ويطلب رقماً انتظره لثوان، قبل أن

يقول:

– أيوه يا (بيومي).. عاوزك تخلص وتروح تجيبلي الواد بعد ساعتين كدة من عند (شلبي).

أغلق هاتفه وهو يقول لنفسه ساهماً:

– ده الحب بهدله.

وانطلق يقهقه ساخراً.

***

تأكدت شكوك (سامية)

الوغد وقع في حب واحدة أخرى..

هذه الواحدة التي ستسلب منها الأيام الهانئة التي اعتادت عليها مع (عمر)، والتي ستعيدها مرة أخرى إلى همها وعطشها لإرواء جسدها، وتحمل الأشواك التي ستجعلها تتقلب على فراشها ليلاً مع السيمفونية الصادرة من جميع فتحات جسد المعلم..

راقبته في ذلك اليوم بعد أن أخبرت المعلم بذهابها لزيارة والدتها، وتمزق قلبها بنيران الغيرة والغضب، عندما شاهدته يستقبل تلك الفتاة في أحد المطاعم..

سيطرت على مشاعرها بصعوبة، وفكرت في الدخول إليهما وليكن ما يكون، لكنها كظمت نيران غضبها وهي تشاهده يتكلم إليها ناظراً إليها بنظرات ملؤها الحب والوله..

نظرات لم تره ينظر بها إليها من قبل طيلة الأيام التي كان يطارحها فيها الغرام على فراش المعلم..

كم تمنت ككل بنات جنسها أن تجد ذلك الشخص الذي ينظر إليها هكذا، كم تمنت أن تكون علاقتها بـ(عمر) تتجاوز العلاقة الجسدية، وقد كانت تقنع نفسها أنه عاجلاً أم آجلاً سيقع بكامل روحه وعقله في حبها بعد أن أعطته كامل جسدها، وجعلته يعاشرها معاشرة الأزواج، لكنه بعد ذلك كله سيتخلى عنها ويهجرها..

لكن الأمر لن تتركه يمر بهذه السهولة، ليست (سامية) هي المرأة التي يتخلى عنها أحدهم بهذه الطريقة، ولن تكون تلك الفتاة الصغيرة النحيلة هي السبب في ذلك..

يجب أن يجرب (عمر) قليلاً من كيد النساء ليعلم أنه قد عبث مع المرأة الخطأ..

لذلك فقد قررت أولاً أن تتحرى عن هذه الفتاة وتعلم كل شيء عنها قبل عمل أي شيء، وليس هناك من يستطيع أن يأتي بخبرها إلا صديقتها الصدوقة (سميحة) زوجة (بسيوني) .

***

استقبلتها (سميحة) صديقتها منذ أيام الدراسة بمنتهى الترحاب، وقد خفت آثار التورم من على وجهها، وبعد تبادل عبارات الترحيب التقليدية، جلست بجوارها على الأريكة المستقرة في ردهة الشقة، وهي تقول لها:

– و(بسيوني) جوزك عامل إيه؟

مصمصت (سميحة) شفتيها وتنهدت قائلة:

– زي ماهو ربنا يهده.

– والله انتي كنتي تستاهلي سيد سيده.. أنا عارفه إيه اللي رماكي عليه؟

–النصيب بقى..المهم إنتي عامله إيه مع المعلم؟

– الحمد لله.. كنت عاوزه منك خدمة يا أختي.

– عنيا يا حبيبتي أؤمري.

اعتدلت في جلستها وهي تقول لها:

– اليومين دول المعلم مش عاجبني كده، حاسه إنه زهق مني وبيلوف على واحدة تانية.

شهقت (سميحة) مستنكرة قبل أن تقول لها خابطة بكفها على صدرها:

– ازاي يا أختي..وهو الراجل هايلاقي زيك فين؟.. ثم هو لسه فيه نفس يبص لحد تاني أصلًا.

تصنعت الضيق وهي تقول لها:

– مش عارفه والله.. بس فيه واحده كده شوفتها بتكلمه وهوطالع م القهوة، بت مفعوصه ف الجامعة أول مرة أشوفها.

– وإيه المشكلة بس لما تكلمه..إنتي بتغيري أوي كده!!

– المعلم بصراحه مش حارمني من حاجه وخيره مغرقنا أنا وأهلي، وخايفه واحده تانيه تيجي تاكل دماغه.. كفاية القرف اللي هاشوفه من ولاده بعد كده.

– ما تقلقيش.. ثم انتي يا بت مش عارفه تاكلي دماغه والا ايه؟؟.. هو انا هاوصيكي.

أطلقت (سامية) تنهيدة من أعماق قلبها وهي تقول:

– وحياتك بعمل كل حاجه بس انتي عارفه صنف الرجاله كله زي بعضه.

تحسست (سميحة) الباقي من آثار التورم تحت عينها وهي تقول:

– انتي هاتقوليلي.. مايملاش عينيهم إلا التراب.

– عشان كده أنا كنت طالبه منك خدمه.

– أؤمري.

– انتي اكيد تعرفي حد من صحاب جوزك في القسم، عاوزك تخليه يجيبلي كل حاجه عن البت دي بس من غير جوزك ما يعرف.

– بس كده من عنيا الاتنين.. طيب عندك صوره ليها والا حاجة.

أخرجت (سامية) هاتفها النقال من حقيبتها وأخذت تعبث بأزراره قائلة:

– أيوه عرفت اخدها صورة.. هابعتهالك دلوقتي على موبايلك.

– تمام كده.

ابتسمت (سامية) في أعماقها لنجاح كذبتها البسيطة وهي تقول:

– تسلم عنيكي مش عارفة هردلك الجميل ده ازاي.

– ماتقوليش كده إحنا إخوات.

نهضت وهي تعدل هندامها وهي تقول:

– طيب أستأذن أنا بقى.

قالت (سميحة) مستنكرة:

– وانتي لحقتي تقعدي خليكي اما نشرب حاجة.

– لا معلش مش عاوزه أتأخر عشان ورايا مشاوير تانية.

نهضت (سميحة) بدورها قائلة:

– ماشي..كلها يوم والا يومين وأجيبلك خبرها.

– تسلميلي..مع السلامة.

– مع السلامة.

تركتها وغادرت الشقة، وأعماقها تغلي وتثور رغم نجاحها في إقناع صديقتها في جلب المعلومات عنها..

لا تريد أن تتسرع في هدم المعبد على رأسه، ولكنها ستحاول في البداية أن تجعله يتجاهل هذه الفتاة ويعود إلى عرينها عن طريق اللين ووسائل المرأة المعروفة في مثل هذه الأمور، فهي أيضاً لا تريد خسارته بهذه السهولة، فإذا عاند ولم يستجب لها فلا يلومن إلا نفسه..

– أنا هوريك يا سي (عمر).. إما كنت أخليك تيجي راكع تحت رجلي مبقاش أنا (سامية).

7

حان الوقت لأطلب منه ما أريد..

كانت هذه الكلمات التي تدور في ذهن (هشام) بعد أن انتهى في ذلك اليوم من دفن أحد العقد بالقرب من إحدى المنازل، التي سيعاني ساكنيها الأهوال بعد أن يطلق (مطرون) أحد أفراد قبيلته النارية ليعيث فيهم فساداً..

لكن هذا كله لم يكن ليشغل فكر (هشام) إطلاقاً..

إن ما قاساه وما شهده من البشر طيلة حياته القصيرة جعلته لا يهتم بما سيحدث، فليحترقوا بنيران الجحيم طالما أن هذا العمل سيجعله يحقق ما يريده..

إنه يريد في البداية معرفة تلك الأيدي الآثمة التي تخلت عنه في يوم أسود شهد ميلاده وبداية عذابه..

لكن ما الذي سيفعله إذا قام سيده بإرشاده لهما؟..

هل سيقوم بالانتقام منهم كما حلم دائماً في لياليه الكابوسية في

الملجأ، خاصة عندما تركته اللعينة (سناء)–التي سيأتي دورها لاحقاً – داخل غرفة العقاب بعد أن أعطته نصيبه من الضرب بالعصا، وسيجعلهما يندمان على لحظة الضعف التي انتابتهما وجعلتهما يرتشفان من كأس المتعة لدقائق قصيرة، لكنها أثمرت عن بذرة ذاقت العذاب ألواناً..

أم عند رؤيتهما سيستطيع أن يغفر لهما ويعود إلى كنفهما وينسى كل ما فات؟..

لن يشغل نفسه بهذا الأمر الآن فليعرف من هما أولاً ثم فليفعل ما يريد..

لذلك فقد قام في ذلك اليوم بالاستئذان من المعلم في المقهى، وقادته خطاه إلى شقة (عماد) ليجد الباب مغلقاً على غير العادة، فتذكر إنها المرة الأولى التي لم يطلبه فيها سيده، قام بالطرق على الباب لينتظر لثوانٍ قبل أن يفتح، ويدلف إلى الداخل وإن لم يذهب عنه ذلك الشعور بالرهبة بعد، ويتجه إلى غرفة (عماد) التي كان بابها موصداً ، فيطرقه بدوره ثم ينتظر لثوانٍ أخرى..

انفتح الباب كالعادة ولكنه لم يجد سيده مكانه، ولكنه وجد شخصاً آخراً فشهق من فرط الدهشة وتراجع قليلاً قبل أن يقول له الشخص:

– كيف حالك يا (هشام)؟

تمالك (هشام) نفسه وهو يرمق ذلك الرجل..

كان رجلاً عادياً وإن كان طويل القامة، يرتدي بزة فاخرة ويبدو عليه الوسامة، يجلس على كرسي في أحد أركان الحجرة، ورغم ابتسامته المطمئنة إلا أنها أشاعت رهبة داخلية في نفس (هشام)، الذي قال له بصوت متوتر قليلاً:

– أنا كويس..انت مين؟

– لا تخف أنا صديق سيدك (عماد).. لكن أستطيع فعل أشياء أكثر منه.

هدأت نفس (هشام) قليلاً عند هذه النقطة وهو يقول له:

– انت محاوي زيه؟.. وليه بتتكلم بالفصحى كدة؟

ابتسم الرجل وهويجيبه:

– تستطيع أن تقول إني أعمل في نفس مهنته لكني من دولة عربية أخرى.. المهم إني أعرف لماذا أتيت وماذا تريد؟

– معقول !!..انت اسمك إيه طيب؟

– أنا اسمي (مطرون).

اندهش (هشام) قليلاً من غرابة الاسم، لكنه تجاوز دهشته وهو يسأله:

– وانت تعرف أنا عاوز إيه دلوقتي؟

قال الرجل بلهجة واثقة:

– بالطبع.. أنا أعرف والديك اللذين ألقياك بعد ولادتك مباشرة.

اتسعت عينا (هشام) ذهولاً وتسارعت أنفاسه وهو يقول:

– بجد؟

– وأكثر من هذا يا (هشام).. أستطيع تنفيذ كل ما تريده فعلاً وليس مثل سيدك (عماد) الذي قد لا يقوم بفعل هذه الأشياء لك.

– طيب مين هما؟.. قولي ده أنا هموت وأعرف.

اعتدل الرجل على كرسيه وهويقول:

– سأقول لك لكن بشرط أن تنفذه بعد إخبارك.

لم يكن (هشام) في حالة تسمح بالمجادلة بعد لهفته لمعرفة والديه، وهويقول:

– أنا مستعد أنفذ كل طلباتك.

عاد الرجل ليسترخي على مقعده وهو يقول:

– عظيم..سأقول لك من هما والديك ثم سأخبرك ما أريد منك، ولكن حذار إذا عرف سيدك بهذا الأمر أوحاولت أنت أن تتصل منه.

– أنا موافق بس كنت عاوز طلبات تانية كمان.

– سوف أنفذ لك كل رغباتك شريطة أن تبدأ فيما أطلبه منك.

لم يفكر (هشام) كثيراً وهو يقول:

– اتفقنا وأنا من ناحيتي مش هاخلي (عماد) باشا يعرف حاجة ومش هاقوله أي كلمة..بس قول مين هما.

ترتسم على شفتي الرجل ابتسامة ظافرة وهو يقول:

– سأقول لك.

أخبره باسم والديه وعلى مكانهما، ثم أخبره بما يريده منه..

وانعقد حاجبي (هشام) دهشة وانتابته قشعريرة باردة بعدما أخبره الرجل بطلبه..

عندها أدرك أنه بدأ يغوص بقدميه في مستنقع ليس له قرار، وأن الطريق الذي سلكه منذ البداية ليس هيناً كما كان يظن..

***

– مسيحية؟!!..الله يخرب بيتك ومالقيتش الا دي!! .

هتف (أحمد) بتلك العبارة وهو يجلس مع (عمر) داخل الورشة، بعد أن ذهب صبيه (فؤاد) لتناول وجبة الغداء، فتنهد (عمر) قائلاً:

– غصب عني والله.. أنا من ساعة ما شوفتها وقولت هي دي اللي بدور عليها ومش عاوز غيرها.

– يابني سيبك من الكلام ده وفوق من الوهم اللي انت عايش فيه.. الموضوع أكبر من كدة بكتير، انت فاهم يعني إيه تتجوز واحده مسيحية في القلق اللي احنا عايشين فيه ده!!.. انت كده هتعمل فتنة والبلد مش ناقصة.

زفر (عمر) في ضيق وقال:

– أعمل إيه طيب يا (أحمد) يعني الإنسانة اللي مش عاوز أعيش

غير معاها واللي اتعلقت بيها أسيبها عشان فرق الدين بيني وبينها، ده حتى ربنا محلل الجواز منها.

– ماقولناش حاجة ربنا محلل الجواز منها بس قال بردو فيما معناه إنك تتجوز مسلمة أحسن ولو عجبتك غير المسلمة.. ثم تعال هنا انت كلمت الخاجة والدتك في الموضوع ده؟

– لا لسه.

قال (أحمد) بلهجة منتصرة:

– بس كده خلصت.. أمك مستحيل توافق على حاجة زي دي، ولا أي حد في عيلتها هي كمان هايوافق.. يا (عمر) انت كده هتعمل مشكلة كبيرة دي مشكلة أمن دولة.

– إحنا اللي عملنا المشكلة دي بايدينا.. ما احنا طول عمرنا عايشين مع بعض كويسين ولا فيه أي حاجة.

– الكلام ده كان زمان يا حبيبي.. دلوقتي كل واحد بيتلكك للتاني على أي حاجة هايفة، إحنا ظاهريا كويسين مع بعض لكن الحقيقة أن النفوس شايلة، وكل حاجة بتظهر وبتطلع للسطح مع أي مشكلة بسيطة.

شرد (عمر) ببصره وهويقول:

– يعني المفروض أعمل إيه دلوقتي؟

اعتدل (أحمد) على كرسيه ومال ناحيته قائلاً:

– مفيش غير حل واحد يا سي روميو.. تنسى الموضوع ده تمامًا

والبنات مفيش أكتر منهم، إنما بلاش السكه دي.. انت كده هتفتح على نفسك أبواب جهنم.

لم يكد يتم عبارته، حتى كانت (سامية) تمر من أمامهما وتقترب منهما وهي ترمق (عمر) بنظرة خاصة قائلة:

– السلام عليكم.. المعلم (جودة) كان عاوزك دلوقتي يا أستاذ (عمر).

ردا السلام ولاحظ (أحمد) توتراً غريباً على صديقه وهويقول لها:

– من عينيا يا ست (سامية).

ابتسمت ابتسامة خافتة وهي تقول:

– ما تبقاش تتأخر عليه لأنه عاوزك ضروري.

قالتها وانصرفت فعاد (عمر) يزفر في ضيق بينما (أحمد) يسأله:

– هي كانت بتبصلك كده ليه؟

– كانت بتبصلي إزاي يعني.!!

– مش عارف بس حسيتها مش طبيعية كده.

– عادي مفيش أي حاجة.

هز (أحمد) كتفيه قائلاً:

– ما علينا.. المهم نصيحة أخيرة يا صاحبي اخلع من السكة اللي انت هاتورط نفسك فيها دي، لو حد تاني شم خبر سواء من عندك أو من عندها الموضوع مش هايقفل إلا بالدم.

– ماتقلقش.. ربنا يقدم اللي فيه الخير.

عاد (فؤاد) في تلك اللحظة، فنهض (عمر) مع (أحمد) وهو يقول:

– خد بالك يا فؤش من الورشة لحد ما أرجع.. أنا مش هتأخر.

رد الصبي:

– من عينيا يا أسطى.

تبادل مع صديقه عبارات الوداع المؤقت، وقادته خطاه إلى البناية التي يقطن بها، والأفكار تثور وتغلي داخل رأسه..

ما الذي حدث له وجعل حياته تنقلب رأساً على عقب لحظة أن شاهد (نوال)؟، ما هذه المغامرة المجنونة التي يقبل عليها، وهو الذي في الأحوال العادية إذا ماسمع عن حدوث هذا الأمر لشخص غيره لاستنكره واتهمه بالجنون والتفاهة..

ربما كان (أحمد) على حق، وعليه ألا يكون أنانياً ويتذكر أمه ووقع مثل هذا الأمر عليها،كما عليه ألا ينسى أن أبواب الجحيم لن تفتح عليه وحده بل على (نوال) أيضاً، وستطال النار الجميع في النهاية..

تدور هذه الأفكار في عقله ويقابلها اعتراض عنيف من قلبه..

إن الحب لا يفرق بين أي شخصين مهما كانت الاختلافات بينهما، وماذا تكون هذه الصعاب في مقابل ما فعله (عنترة) ليظفر بمحبوبته (عبلة). إن الحب فقط للشجعان وهو لم يكن أبداً جباناً، كل ما يتمناه أن يصحو يومياً ليجد وجه (نوال) أول شيء يطالعه، وأن

يكون آخر وجه يملأ به عينيه وقلبه وروحه قبل أن يخلد إلى النوم..

فهل سيضيع هذا كله بسبب اختلاف الديانة؟..

إن الله لم يحرم أمراً كهذا، ولكن الناس بأعرافهم وتقاليدهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم هي فقط من تحرم الحلال وتحلل الحرام..

صراع عنيف جعل رأسه يدور، قبل أن يجد نفسه يصعد إلى شقة المعلم، ليعود إلى عالم الواقع ويقرر أن يحسم أمر (سامية) أولاً حتى يستطيع أن يجد حلاً لمشكلته الأساسية، ولم يكد يطرق الباب، حتى فتحته (سامية)، وهي تقول له:

– اتفضل يا سي (عمر)..عاش من شافك.

قال لها دون أن يدخل:

– ماتشوفيش وحش..خير أن شاء الله.

شهقت مستنكرة وهي تقول:

– من على الباب كده.. وده ينفع بردو متخافش مفيش حد جوه.. ادخل.

دلف إلى الشقة فأغلقت وراءه الباب، ووجدته يقف ساكناً فاقتربت منه قائلة:

– إيه يا (عمر) مالك.. لا بقيت تيجي ولا تسأل ولا تعبرني.

أحاطت وسطه بذراعيها من الخلف، لكنه لم يحرك ساكناً على غير

تعودها منه قبل ذلك وهو يقول لها:

– الشغل يا (سامية) وأنا كنت قايلك قبل كده إننا عاوزين نخف شوية، ثم انتي معاكي رقم تليفوني إيه اللي خلاكي تجيلي الورشة قدام الناس كده؟

أجابته في دلال وهي تريح رأسها على ظهره:

– ما هو انت لو بترد على التليفون ماكنتش عملت كده، ثم أنا قولت أن دي الطريقة اللي هاتخليك تجيلي على طول.

التفت إليها وهو يقول:

– ماشي يا ستي.. ماقولتليش عاوزاني ف إيه.

توقعت منه هذا السؤال لكنها لم تتوقع تلك النبرة الباردة في كلامه ونظراته الجامدة، فابتعدت عنه قليلاً وقررت كشف الأوراق كلها مرة واحدة، فوضعت يديها في وسطها وتغيرت نبرتها في الكلام للهجة متنمرة وهي تقول له:

– أنا بس عاوزه أعرف إيه اللي عاجبك في البت المفعوصة دي؟

انعقد حاجبه دهشة في البداية، ووجد أنه لا داعي للإنكار أو المراوغة، فتحولت مشاعره من الدهشة إلى الغضب وهويقول لها:

– ما تتكلميش عنها كده.. ثم دي حياتي وأنا حرفيها، مش جوزك أنا عشان تسألِيني كده ولا تتجسّسي عليا.

توقعت مراوغة أو استكاراً في البداية، لكنها تغلبت على الأمر

بسرعة وهو تلوح بيديها قائلة:

– أنا أسألك زي منا عاوزه،وإذا كان على جوزي فانت بتعاشرني زيه وأكتر كمان.

– يعني انتي عاوزه إيه دلوقتي؟

اقتربت منه وقد تبدت نظرة شرسة في عينيها وهي تقول له:

– نرجع زي الأول وتسيبك منها، وإلا قسمًا بالله لأولعها نار وأنت فاهم أنا قصدي إيه.

أدرك ما تنتويه خصوصاً إذا كانت تعلم بديانتها، وزاده هذا الأمر عناداً بدلاً من تهدئته، فقال لها:

– أنا مش بيتلوي دراعي يا (سامية).. وإذا انتي عملتي أي حاجه أنا كلامي هيكون مع المعلم بعد كده، وشوفي بقا هيعمل فيكي إيه.

قالها وتركها مغادراً الشقة، فتجمدت هي في مكانها لدقائق، وتلك النظرة النارية لا تزال في عينيها، قبل أن تقول لنفسها:

– أنا هوريك.

واشتعلت أعماقها بالغضب أكثر.

***

انهمرت دموع (وفاء) أنهاراً وهي تحتضن ابنها (حسام)، وتغمره بقبلاتها في كل جزء من وجهه، وتقول له:

– يا حبيبي يا (حسام).. أنا مش عارفه من غيرك كنت هعمل إيه.

بادلها الصبي القبلات والدموع،وهويقول لها:

– ماتسيبينيش تاني يا ماما.

– عمري ما هاسيبك أبداً.

تنحنح (بسيوني) وهو يقف على عتبة شقتها بعد أن أوصل (حسام) إليها، وتظاهر بالتأثر وهويقول:

– ألف حمد الله على سلامتك يا (حسام).. ربنا يخليكوا لبعض.

قالت له بصدق:

–أنا مش عارفه بجد أشكرك إزاي.

ابتسم ابتسامته السمجة وهو يقول لها:

– أنا زي ما قولتلك يا (وفاء) واسمحيلي أقولهالك كده من غير تكليف..كل اللي يهمني رضاكي.

قالت له وهي تحاول أن تتمالك نفسها من الدموع ولا تزال تحتضن ابنها:

– وعملتوا غيه في اللي عملوا كده؟.. وكانوا بيعملوا كده ليه أصلًا؟

– ده شوية عيال بلطجية كانوا عاوزين فلوس طبعا، كانوا يومين والا حاجة هايتصلوا بيكي، بس محسوبك عمل تحرياته وعرف بجيب قرارهم قبل ما يعملوا أي حاجة، أنا قولتلك لازم ابنك يبات في حضنك الليلا دي.

قال لها (حسام) في تلك اللحظة:

– أنا عاوز أنام يا ماما.

قامت بحمله وهي تعبث بشعره قائلة:

– حاضر يا حبيب ماما..عن اذنك يا (بسيوني) باشا.

– اتفضلي..وتقدري تقوليلي (بسيوني) حاف من غير أي حاجة.

تركته لتدخل بابنها إلى حجرة نومه، فدلف (بسيوني) إلى الشقة، وجال بعينيه في الردهة ليتأمل محتوياتها، ولفت نظره ذلك الإطار الكبير الذي يحتوي صورة لزوجها الراحل مع الشريط الأسود على زاويته، فابتسم ابتسامة مستهزئة وهو يقول بصوت خافت كأنما يخاطب الصورة:

– هانت وهابقى مكانك.

مضت دقيقة قبل أن تخرج (وفاء) من غرفة ابنها مغلقة الباب وراءها، وتوجهت إلى (بسيوني) قائلة:

– للمرة الألف أنا بشكرك جدا.

– وأنا للمرة الألف بقولك لا شكر على واجب.. أنا لو أي حد تاني غيرك مكنتش اهتميت وتابعت موضوعه كده،! ثم ربنا لوحده الله يعلم غلاوتك عندي أد إيه.

بدأ إحساس الضيق ينتابها، وإن كان قد انخفض قليلاً عن المرات الأولى متذكرة ما فعله ليجلب ابنها إليها، وهي تقول له:

– ربنا يخليك.

أشار إلى صورة (مصطفى) وهو يقول لها:

– جوزك؟

ظهر التأثر على ملامحها و ي تجيبه:

– أيوه.. الله يرحمه.

تظاهر بدوره بالتأثر وهو يقول:

– ربنا يرحمه ويعوضه عنك خير.

– الحمد لله (حسام) معوضني ومالي عليّا حياتي.

تنحنح وهو يقول:

– أكيد.. بس بردو انتي ست وحيدة وطبعا هتحتاجي حد ياخد باله منك ومنه خصوصًا في الزمن المنيل اللي احنا فيه ده، والمره دي الحمد لله جت سليمه مين عارف إيه اللي ممكن يحصل تاني.

– أنا بصراحة مش بفكر في أي حاجة دلوقتي غير إني أربي ابني (حسام) واخد بالي منه، موضوع الجواز ده مش بفكر فيه إطلاقًا.

لم تدر كيف كانت تدير حواراً مثل هذا مع (بسيوني)، وهي التي لم تقل هذا الكلام إلا لأمها ولصديقتها (سميرة) فقط، ولكن يبدو أن ما فعله قد أزال قليلاً من الحواجز بينهما رغم لزوجته في البداية معها، بينما هو يقول:

– بالعكس ده انتي لو اتجوزتي ممكن تقعدي في البيت وتقدري تاخدي بالك أكتر من ابنك.

واقترب منها قليلاً وهو ينظر لها نظرته اللزجة قائلاً:

– وصدقيني اللي يتجوزك هيبقى هو الكسبان.. واحده زيك المفروض ما تتسابش كده.

تصاعدت دقات قلبها من فرط التوتر، وتأكدت إن باب الشقة لا يزال مفتوحاً، فقالت له محاولة إنهاء النقاش:

– ربنا يسهّل.. شرفت يا (بسيوني) باشا ومتشكره جدًا.

أدرك محاولتها لإنهاء النقاش لكن هذا لم يثنِ عزمه، وهو يقترب منها أكثر متناولاً بطاقة من جيب سترته العلوي، ليمد يده بها إليها، قائلاً:

– ده الكارت بتاعي أي وقت تحتاجيني فيه كلميني.. أنا تحت أمرك وتقدري تقولي (بسيوني) بس.

أخذت منه البطاقة وتعمد أن يلمس بأطراف أصابعه يدها، فجفلت منه وهي تقول:

– إن شاء الله.

انتابته رغبة قوية في احتضانها وليكن ما يكون، لكنه كتم مشاعره بصعوبة، وهو يقول لها:

– وأنا زي ما قولتلك قبل كده، أنا جاد وداخل البيت من بابه وهأقولهالك المرادي علنا وصريحة.

تلاحقت أنفاسها وهو يقترب منها ثانية ويقول لها:

– أنا طالب القرب منك.

لم تدر ماذا تقول وانتابتها مشاعر متضاربة تغلب رفضها فيه في النهاية، لتجد نفسها تقول له بصوت عالٍ:

– اذا كان حضرتك جيتلي ابني فده جميل مش هقدر أنساهولك أبدًا، إنما انك تيجي ف نص الليل وتعرض عليا حاجة زي دي فده اللي مش ممكن أبدًا، وغير كده أنا قولتلك إني مش بفكّر في حاجة زي دي دلوقتي نهائي.. فياريت حضرتك تتفضل دلوقتي وشكرًا للمرة المليون.

بُوغت بهذا الرد الجاف، فتراجع قليلاً وإن لم تختف الابتسامة من على شفتيه، وهو يقول:

– ماشي يا ست الكل براحتك بس ما تتسرعيش في الرد.. فكري الأول وأنا موجود وصدقيني مش هاتلاقي أحسن مني.

لم تجبه وإن تبدت نظرة جامدة في عينيها، فأدرك أنه يجب أن ينسحب الآن رغم الغضب العارم بداخله، فتركها قائلاً:

– عمومًا تصبحي على خير.

غادر الشقة شاعراً بالغضب والضيق رغم الابتسامة المرتسمة على شفتيه، وإن اعتزم في نفسه أمراً ثانياً..

يبدو أنه من الصعب الوصول لهذه المرأة، ولم يجد معها ما فعله شيئاً بعد، لذلك يبدو أنه سيضطر لفعل أمر آخر لم يرد أن يفعله في البداية..

لقد رفضته وهوالذي لم يرفض له أحد طلباً قط..

لذا فعليها أن تتحمل مسئولية هذا الرفض..

8

بالتأكيد تغيرت حياة (هشام) كثيراً، خاصة بعدما انتهى من دفن الجثة جيداً، ووقف يمسح حبيبات العرق من على جبينه ويلتقط أنفاسه في تلك الساعة المتأخرة من الليل..

فتحت قدميه وتحت التراب يرقد (فوزي الطرابيلي) والده الذي تخلى عنه، وأحد الأثرياء الذين فقدتهم البشرية منذ ساعة تقريباً..

والده الذي أقام علاقة غير مشروعة في شبابه مع الخادمة التي تعمل عندهم، وأثمر هذا عن حملها سفاحاً بـــ(هشام)، قبل أن تطردها الأسرة الثرية وتتنصل من هذا الحمل، فتلده أمه الفقيرة ثم تلقى ربها بعد ولادته بأيام..

يذهب لأبيه بعد أن قام (مطرون) بإخباره بعنوانه ومكانه، يراقبه عند خروجه من الفيلا الفاخرة التي يملكها، يراه وهو يشرب سيجاره الكوبي الفاخر، يشاهده وهو يستقل سيارته الفارهة، يلاحظ التشابه الواضح بينه وبين والده برغم ملامح الثراء الواضحة على الأب الثري وملامح الشقاء المخفورة على وجهه..

يذهب بعد ذلك لطلب مقابلته، يتم الرفض في البداية بمجرد رؤيته، يلح حتى يتمكن أخيراً من مقابلته، تتغلب صلة القرابة على مشاعر الغضب وتنسيه ليالي البؤس والشقاء التي عاشها، خاصة وهو يملي عينيه من الفيلا ومن والده المتغطرس، ويتخيل نفسه وقد صارت ملكه بعد اعتراف أبيه به..

طبعاً لم يعترف (الطرابيلي) الثري المتغطرس بأي شيء مما قاله (هشام)، يمط شفتيه امتعاضاً، ينظر له نظرة مشمئزة، وإن كانت عيناه بعد ملاحظة التشابه الواضح بينهما لم تنكر هذا تماماً، لكنه أمر الخدم في النهاية بإلقاء ابنه غير المعترف به خارج الفيلا شر إلقاء..

عندها اسود العالم في عينيه أكثر وصار أكثر إظلاماً من قلب كافر، وقرر أن ينتقم لنفسه ولأمه المسكينة، وانزاحت كل المشاعر الإيجابية التي كانت قد بدأت تنبت داخله بعد رؤيته لأبيه، لتعود مشاعر الغضب والكره التي طالما شعر بها في ليالي الملجأ أو حتى في ورشة الأسطى (شوقي).

لم يعرف كيف استطاع متابعة والده الذي كان بمفرده، ولا كيف وجد تلك السكينة في يده، ولا كيف باغته بتلك الطعنة الأولى التي مزقت أحشاءه..

الطعنة التي انتظرها خمسة عشر عاماً، الطعنة التي أخمدت ناراً من نيران الجحيم التي تستعر بداخله، الطعنة التي ستغير مجرى حياته مرة أخرى..

يستقر السكين في أحشاء الثري العابث، بينما يقول له (هشام)

وهو ينظر في عينيه الذاهلتين المتألمتين ماسكاً بتلابيبه:

– أنا فعلا ابنك من (فردوس) اللي انت ضحكت عليها ورميتها زي مارميتني من خمستاشر سنة.

تزداد عينيه جحوظاً بينما ينتزع (هشام)سكينه، ليغمده مرة أخرى في قلبه هذه المرة، يطلق صوتاً متحشرجاً أخيراً من بين شفتيه، يخبو نور عينيه ويكون آخر ما يراه هي النظرة الجامدة من ابنه الذي أنكره..

لم يعرف (هشام) كيف استطاع قتل (فوزي الطرابيلي) بهذه السهولة، وهو الرجل الثري الذي ترافقه الحراسة دوماً، ولكن يبدو أن (مطرون) قد كان له يد في هذا، خاصة وهو يدفنه في ذلك الشارع الضيق بالقرب من فيلته، ولم يكن هنالك أحد سواه وسوى ذلك الكلب الأسود الذي يراقبه من بعيد..

بالتأكيد هناك لمسة شيطانية ما وصلت لنفسه، وجعلته يفعل هذه الفعلة..

ينتهي من تسوية الأرض بذلك الرقش الذي وجده قريباً من الفيلا، ويشعل سيجارة بأصابع مرتجفة، يلتقط أنفاساً عميقة، وهو ينظر إلى ذلك الكلب الأسود الذي يرمقه من بعيد صامتاً، يغادر المكان محاولاً استيعاب أنه قتل نفساً منذ قليل..

محاولاً استيعاب أنه قد قتل والده الذي تسبب في شقائه، ولم يكتف بهذا بل تنكر له وطرده شر طردة وتخلى عنه..

ذلك الشعور عن قتلك لنفس بشرية للمرة الأولى..

أن تنتابك تلك الرجفة من رأسك حتى أخمص قدميك بعد أن تفيق مما جنته يداك، أن ينتابك التوتر في البداية وتشعر أن كل من حولك يعرف بجرمك وما فعلته، أن تتنفض عند رؤية أي سيارة للشرطة تمر من بعيد، أن تتوقع نزول اسمك في الجرائد كل يوم، وأن تنتشر صورتك على التلفاز، وأن يكون العالم بأكمله على علم بما فعلته..

يتملكك الخوف، تريد أن تتقيأ ولكنك لا تستطيع، التركيز مفقود تماماً، تتمثل دائماً تلك النظرة الأخيرة للضحية في كل مكان حولك، تتوتر، تضطرب، تصاب بالبارنويا، لا تنام في الليلة الأولى..

تختفي هذه الأعراض تدريجياً يوماً بعد يوم، لكن تنتابك الكوابيس ليالين أخرين، تطمئن تماماً أن أحداً لم يعرف بما فعلته، تعود ثقتك إلى نفسك، يزاح الخوف تماماً، تشعر أنك أقوى من ذي قبل، تتيقن أن القتل لم يعد صعباً..

تدرك أن شخصيتك القديمة قد صارت هباء منثوراً..

لكن (هشام) يعلم جيداً أن ما فعله ليس نهاية المطاف، وأن هناك وعداً قد قطعه مع (مطرون) ولابد أن يفي به، حتى يستطيع أن ينفذ باقي طلباته، إن قائمة انتقامه لم تنته بعد..

تلك الحقيبة التي يحملها بعد دفن والده، والتي تحتوي على جزء منه، تؤكد أنه يحاول الوفاء بوعده، وتؤكد أنه لم يعد فعلاً (هشام) القديم البائس..

وأن أياماً رهيبة لم تأت بعد..

– ادخلي يا (سامية).

أجفلت (سامية) بعد أن سمعت ذلك الصوت العميق ناطقاً اسمها، وهي تدلف إلى الحجرة التي يقطن بها (عماد)، التي أخبرتها (سميحة) عنه..

كانت (سامية) كعادة أقرانها في الأحياء الشعبية يؤمن معظمهم بالدجل والشعوذة والسحر، لذلك فما أن سمعت من صديقتها عن هذا الرجل وتأكيدها لها أنه فعلاً ساحر، وليس أفاقاً كباقي المدعين في هذا المجال، حتى ذهبت له على الفور..

لم تندهش لمعرفته اسمها، ولكنها اندهشت أكثر عندما قال لها (عماد):

– انتي شاكه لسة ومش مطمنة اني أقدر أعملك اللي انتي عاوزاه.

تردّدت قليلاً وهي تجول ببصرها في أنحاء الحجرة، ثم قالت:

– الصراحه من كتر النصابين الواحد مبقاش عارف مين اللي بحق وحقيق.

ابتسم ابتسامة خافتة، وهو يضع البخور في الإناء الذي يحتوي على الفحم المشتعل أمامه، ويقول:

– خلاص.. يبقى الأول لازم أثبتلك اني مش نصاب.. اتفضلي اقعدي الأول.

اتخذت مجلسها على تلك الأريكة العتيقة، بينما بدأ عمله في تلك الحيلة الشهيرة التي يقوم بها السحرة..

يخلع خاتماً كان يرتديه من الفضة به عقيقة غريبة المنظر ووضعه أمامه، يبدأ في ترديد تعاويذ بموت خافت، تبدأ في الشعور بالخوف وتكتم صرخة كادت أن تفلت منها، بعد أن رأت جسده يرتعش وتكاد تقسم أن حدقة عينيه قد انقلبت إلى اللون الأحمر، لا تدرك أنه يتوسل لإبليس أن يساعده فيما ينتويه، يصلي له صلاة خاصة، يجدد قسمه له بالإخلاص وطاعة أوامره مقابل أن يقوم (مطرون) بمساعدته..

لا تستطيع (سامية) أن ترى ذلك القرد الشيطاني والذي يحمل درعاً على ظهره، الذي حضر نتيجة هذه التوسلات والصلاة، ولكن (عماد) يراه..

يخلع (عماد) عباءته ويعرى نصفه العلوي بالكامل وهو لا يزال في تلك الحالة، بينما يقترب منه القرد ليقوم بتثبيت نفسه على صدر (عماد)، بأن يقوم بالتشبث به بأيديه وأرجله من تحت إبطيه ومن خصره..

يحدث هذا كله دون أن ترى (سامية) شيئاً، التي تراقبه بنظرات مذعورة مبهورة، وهو يلتقط خنجراً ماضياً، ثم يقوم مع صرخة خافتة أفلت منها بغرسة في الدرع الموجود حول خصره،فيخيل لها أن ذلك الخنجر يخترق جسده، ولا يظهر على وجهه أي أثر لما حدث، ثم ينتزعه ليغرسه في صدره، فتقول له بصوت مرتعش:

– خلاص يا مولانا صدقت خلاص.

هذا هو ما يفعله السحرة منذ فرعون.. أن يسحروا أعين الناس..

ينزع (عماد) الخنجر من مكانه دون أن تراق نقطة دم واحدة، ينصرف القرد بعد أن أنهى مهمته، يرتدي ملابسه وعباءته، يعود ليتخذ مجلسه وسط الأبخرة، يقول لها وعيناه تعود للونها الطبيعي:

– إيه اللي انتي كنتي عاوزاه بقا؟

كان يعلم تماماً كل شيء عنها بعد أن أخبره (مطرون)، لكنه أراد أن يسمع منها ما تريده، فازدردت لعابها الجاف، واعتدلت على الأريكة وهي تقول:

– شوف يا سيدنا.. أنا فيه واحد عاوزاه يجيلي راكع تحت رجليا، غدر بيا بعد ما أديته أعز ما أملك، راح جري ورا واحدة تانية والمصيبة أنها مسيحية، عاوزاه ينساها وما يقدرش يشوف حد غيري.

ابتسم في أعماقه، وهويقول لها:

– طلبك مجاب.. بس عاوز حاجة من أثره.

تخرج من حقيبتها قطعة قماش ملفوفة ناولتها إياه قائلة:

– أنا عامله حسابي..خد.

طفت الابتسامة على شفتيه، وهو يتناول منها اللفافة قائلاً:

– تمام.. يبقى تسمعي طلباتي أنا كمان.

قالت له منفعلة:

– اللي تؤمر بيه يا مولانا.

كانت تظن أن هذا فقط ما سيفعله (عماد)، لكنها لم تكن تعرف أن الأمر لن يقف فقط عند هذا الحد..

لم تكن تعلم أنه حتى يعو شأن (عماد) بين أقرانه من السحرة، فلابد أن يبقين في نشر الشر والفساد بين البشر؛ لأن هذا ما يفضله ويحبه الشيطان،صحيح أنه سوف يستعين بشياطينه لتحقيق مطلبها، لكن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد..

لن ينتهي أبداً..

***

انطلقت ضحكة عابثة من بين شفتي (لينا) بعد أن انتزعت هاتف (نوال) النقال من يدها محاولة إلقاء نظرة على شاشته المضيئة وهي تقول:

– وربي بقا مين هو.

انتفضت (نوال) مترعجة لهذه الحركة المباغتة، ونهضت سريعاً لتلتقط الهاتف من أختها الصغرى، وهي تقول لها:

– بطلي رخامة بقا.

ذهبت لتجلس بجوارها على سريرها، ووضعت قبضتيها تحت ذقنها وهي تقول:

– انتي بقالك كم يوم مش ف حالتك وبتسرحي كتير وماسكة

تليفونك على طول، والأعراض دي ملهاش غير تفسير واحد.

لم تحر (نوال) جواباً، فعادت (لينا) تحاول اختلاس النظر إلى الشاشة قائلة بطريقة هائمة كوميدية:

– الحب وسنينه.

التفتت (نوال) إليها وهي تقول مندهشة:

– هوأنا باين عليّا أوي كدة؟!

هزت (لينا) كتفيها وهي تقول:

– مش أوي بس الحاجات دي مايأخدش باله منها إلا الناس الخبرة زيي كده.

ابتسمت (نوال) وهي تقول مستنكرة:

– خبرة ايه !!..ده انتي لسة ماطلعتيش من البيضة.

– ده كان زمان يا أختي.. انسي بقا الأمثال بتاعت أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة، دلوقتي الانترنت والموبايلات مش مخليه حد صغير.

– عندك حق والله.

عادت (لينا) تميل نحوها وهي تقول:

– مش ناويه بردو تقوليلي إيه الموضوع؟

تنهدت (نوال) وشردت قليلاً بنظراتها وهي تقول:

– عندك حق بس الموضوع صعب شويه.

تملكت اللهفة أختها لمعرفة باقي التفاصيل وهي تقول:

– ملكيش دعوة انتي بس احكيلي كل حاجة، واحنا هانلاقي حل لأي مشكلة.

ترددت في البداية ثم قالت:

– هو إنسان كويس مكافح ومحترم.. قابلته بالصدفة من فترة قريبة، كان فيه واحد بيعاكسني وهو اتخانق معاه وضربه عشاني.. معرفش إيه اللي جرالي أول ما شوفته، حسيت إني لقيت الشخص اللي أي واحده بتحلم بيه، لما بشوفه قلبي بيدق بسرعة، الكلام بيطير من على شفايفي، أفكاري كلها بترتبك، كياني مش بيبقى على بعضه، بحس إني عاوزاه ياخدني ف حضنه ويقفل يضمني لحد ما أبقى حاجة صغيرة جدا، لحد ما أقدر أدخل جوة قلبه ويقفل عليا فيه.

قاطعتها (لينا) وهي تضحك:

– يا سيدي يا سيدي.. ده انتي شكلك وقعتي وانتي واقفة.

بادلتها الضحك وهي تكمل:

– اتقابلنا كم مره كده بس طول ما كان بيبقى معايا بيكون محترم جدا، مش بيلمسني خالص مع اني بشوف ف عنيه أنه عاوز كده، وبيبقى نفسي أنا كمان ألمسه، لما بكون معاه بابقى مش عاوزه حاجة تاني من الدنيا.

تساءلت (لينا) مندهشة:

– كل الكلام ده حلو جدا،فين المشكلة بقا؟

أطلقت (نوال) زفرة من أعمق أعماق قلبها وهي تقول لها:

– إن اسمه (عمر).

شهقت (لينا) كمن مسها تيار كهربي وهي تخبط صدرها بكفها قائلة:

– مسلم؟!!..يا نهار إسود..إيه اللي انتي بتقوليه ده!!

– زي ما بقولك كده، هو مسلم وعارف إني مسيحية، لكن كل ده ما غيّرش من حبي ليه أو حبه ليا، بالعكس اتمسك بيّا أكتر، وهو غرضه شريف مش بيلعب وخلاص زي بقية شباب اليومين دول، هو فعلا عاوز يرتبط بيا رسميًا، و..

قاطعتها أختها وهي تمسكها من ذراعها:

– انتي مجنونه والا جرا لعقلك حاجة؟.. رسمي إيه وحب ومين!!..ده لو بابا والا ماما عرفوا ها تبقى ليلتك طين وأيامنا الجاية كلها سودا، انتي فاهمه اللي انتي عاوزه تعمليه ده ها يودينا لفين؟

– أعمل إيه يعني؟..أسيب الشخص اللي حلمت بيه عشان خاطر ديانته غيري؟

– لا ياحبيبتي مش عشان كده وبس..عشان دلوقتي المواضيع اللي زي دي مش هاتبقى أخرتها ماما وبابا يزعلوا منك، أو يدوكي علقه محترمه والموضوع ينتهي على كده.. دلوقتي لو حصل أي ارتباط رسمي بينك وبينه مصر كلها هتعرف، والباب اللي هاتفتحوه ده مش

ها ينتهي كده بالساهل.

– طيب وبعدين؟

قالت لها (لينا) بلهجة صارمة لا تتناسب مع سنها:

– لا بعدين ولا قبلين، انبي تنهي علاقتك بيه تمامًا وتحاولي تنسيه قبل ما أي حد تاني في العيلة يشم خبر وخصوصا (بيتر).

لم تكد تأتي على ذكره حتى عادت تزفر في ضيق وهي تقول:

– بتفكريني ليه بيه بس؟

– عشان نار (بيتر) ولا جنة سي (عمر) بتاعك ده.

سمعاً في تلك اللحظة طرقات خافتة على باب الحجرة، قبل أن ينفتح الباب وتطل أمهما برأسها منه، وهي تقول لهما:

– ازيكم يا بنات؟ مالكم مكشرين كده ليه.

تغيرت ملامح (لينا) تماماً لتحل محل صرامتها ضحكتها العابثة متصنعة المرح وهي تقول لأمها:

– مفيش حاجة يا ست الكل شوية كلام بنات كدة.

التفتت أمها إلى (نوال) وهي تقول لها مستنكرة:

– إيه يا (نوال) ما قمتيش لبستي وجهزتي نفسك ليه لحد دلوقتي؟

انعقد حاجبا (نوال) دهشة وهي تسألها:

– ليه في حد جايلنا والا ايه؟

– اخص عليكي مش عارفة يعني إن (بيتر) هايجي مع مامته وباباه عشان يطلبوا ايدك رسمي من أبوكي!!

ازدادا انعقاد حاجبي (نوال) وشعرت بكلمات أمها كقنابل قوى على قلبها فينثر أشلاءه في كل مكان، بينما رمقتها (لينا) بنظرة خاصة، وتظاهرت بالمرح وهي تقول:

– أكيد طبعًا عارفه بس الكلام نساها شوية.. مش تقومي بقا يا نونو وتتزوقي كده، خلاص يا ماما شوية ونجهز.

اومأت الأم برأسها موافقة وإن تملكتها الريبة قليلاً وهي تقول:

– أوك كلها نص ساعة ويكونوا موجودين.

غادرت الحجرة وأغلقت الباب وراءها، فالتفتت (لينا) إلى أختها الكبرى وهي تقول لها:

– يالا قومي اجهزي.. أنا عارفه إن (بيتر) رخم بس هو بيحبك أكيد، واديكوا ها تتخطبوا الأول، مع الوقت هاتحبوا بعض وهاتنسي (عمر) واحدة واحدة.

لم تنطق (نوال) بكلمة واحدة، وهي تنظر إلى أختها ساهمة، وإن تحجرت دمعة في عينيها، فاحتضنتها (لينا) وهي تربت على رأسها قائلة:

– معلش ماتزعليش.. انتي اختي وانا خايفة عليكي وعلينا كلنا، وصدقيني ده أحسن حل دلوقتي.

لم تستطع (نوال) كبح جماح دموعها أكثر من هذا، فسالت على

صدر أختها، التي زادت من احتضانها أكثر، وهي تقول لها محاولة إضحاكها:

– يالا قومي عشان تغسل وشك ونشوف الرخم ده.

وانهمرت دموع (نوال) أكثر..

9

كانت تجربة قاسية بحق بعد تجربة وفاة زوجها..

لم تكن تتخيل (وفاء) أنها ستعيش مثل هذه اللحظات مرة أخرى بعد اختطاف ابنها الوحيد، وإمكانية أن تفقده كما فقدت (مصطفى) من قبل..

تملي عينيها منه كل يوم عندما يأوي إلى فراشه، لا تتركه إلا بعد أن تتأكد أنه نام مطمئناً، لم يعد يغيب عن عينيها إلا أثناء ذهابه وعودته من المدرسة بعد أن قامت بإشراكه في حافلة الطلبة، بدلاً من أن يقف كالمرات السابقة في انتظارها بالشارع، وتأكدت من أنه في أمان الآن مع مشرفي الباص..

تتذكر قسوتها مع (بسيوني) رغم أنه السبب الرئيسي في إعادة ابنها لها، ولكنها تتذكر أيضاً لزوجته وتاريخه الفاسد الطويل المعروف في حيهم، وأنه بالفعل لا يزال متزوجاً..

تعرف أن (بسيوني) لن يتوقف عن مضايقتها، لكنها تلقي كل هذا

خلف ظهرها مع لمسة حانية على رأس ابنها، مع ضحكة طفولية بريئة تصدر منه، مع نظرة مشاكسة وقت اللهو..

تضايق منها أخيها (عمر) كثيراً عند علمه بما حدث ولم تخبره، تفهمه إنها عندما اكتشفت ما حدث لم تدر بنفسها إلا وهي في قسم الشرطة، ثم قام (بسيوني) بعمل اللازم، وإن المهم الآن أنه في أمان وفي كنفها..

تُكن معزة خاصة لأخيها الوحيد (عمر) الذي كان بمثابة أب بعد وفاة والدها رغم أنه أصغر منها سناً، لكنه منذ صغره وهو أهل للمسؤولية، ساعدها في زواجها ووقف بجوارها بجهده وماله لأخر لحظة ولا يزال حتى الآن..

تدعو الله له دوماً أن يجد الزوجة الصالحة، وأن تراه في بيت الزوجية ينعم بحياته بعد سنوات من المسؤولية والتعب، لكنها تعرف أن أخاها لن يقبل على مثل هذه الخطوة إلا بعد أن يكون قد تجهز تماماً لهذا الأمر..

المهم أنه بعد عتاب طويل أكد عليها ضرورة مكالمته عند حدوث أي أمر ولوبسيط، وأنه سيمر ليطمئن عليها دائماً وعلى (حسام) إلى أن جاء ذلك اليوم..

عادت من عملها كعادتها إلى المنزل في انتظار (حسام) الذي يلحقها بعد ذلك بنصف ساعة تقريباً، تخلع ملابسها وتدخل إلى الحمام لتستحم وتزيح عن جسمها أثار التراب والإرهاق من يوم عمل متكرر، تنتهي سريعاً وترتدي روباً منزلياً، ثم تنتقل إلى المطبخ

حتى تعد الغداء لها ولا ابنها قبل وصوله، والذي يكون عادة مجهزاً من الليلة السابقة وما عليها إلا تسخينه، تنتظر بلهفة طرقاته على الباب معلناً عودته في نفس الوقت تماماً، تسمع الطرقات فعلاً وتقرع إلى الباب لتفتحه بعد أن ترتدي عباءة طويلة، ترتسم على شفتيها ابتسامة مرحبة، وهي تنحني لتحمل ابنها من على عتبة الباب، وتقبله قائلة:

– عامل إيه يا حبيب ماما..وحشتني.

يبادلها (حسام) القبلات وهو يقول:

– الحمد لله يا ماما وانتي كمان وحشتيني.

همت بإغلاق الباب وهي تحمله، ولكنها فوجئت بإحدى السيدات تبرز لها قبل أن تغلقه، وهي تقول لها:

– مش انتي بردو الست (وفاء)؟

تتأملها (وفاء) في دهشة بالأصباغ التي تملأ وجهها، ونظراتها الماكرة، وملامحها التي تعكس وجهاً غير بريء بالمرة، فانعقد حاجباها ووجدت نفسها تتشبث بابنها أكثر، وهي ترد عليها:

– أيوه..حضرتك مين؟

اقتربت منها السيدة لتتجاوز الباب قليلاً، وهي تقول:

– محسوبتك (كريمة).

اندهشت (وفاء) من دخولها غير المبرر، وقبل أن تقول لها

شيئاً، كانت (كريمة) تدير وجهها للجهة الأخرى، وتهتف قائلة:

– تعالوا.

وضعت (وفاء) ابنها أرضاً جراء هذا الهتاف المباغت، ووجدت أكثر من خمس سيدات بنفس مظهر (كريمة) مع عدد من الرجال يدخلون إلى المنزل، فاندفعت نحوهم محاولة منعهم من الدخول وهي تهتف:

– انتوا مين وعاوزين ايه؟!!

دفعتها (كريمة) لتسمح لهذا الجمع بالدخول، وهي تقول هازئة:

– عاوزين كل خير يا حبيبتي.

دخل الجميع إلى المنزل، و(وفاء) تحاول السيطرة على ذهولها، ثم لم تلبث أن هرعت إلى هاتفها النقال وهي تقول:

– انتوا بتتهجموا عليا في بيتي أنا هطلبلكم البوليس حالا.

انطلقت ضحكة رقيعة من (كريمة)، بينما انتشر الرجال والنساء في منزلها وهي تقول:

– اطلبيه بسرعة..احنا مستنيين.

اندهشت لهذه الثقة المبالغة والاستهزاء في كلامها، وتريثت لحظة، وخيل إليها إنها فهمت ما يحدث، بينما يمسك (حسام) بطرف عباءتها خائفاً وهو يقول:

– هما مين دول يا ماما.

تحاول طمأنته وهي تربت على يده قائلة، وهي تتابع بعينيها النساء اللاتي خلعت كل منهن ما ترتديه، ووقفن بقمصان نومهن مع الرجال قائلة:

– ماتخافش يا حبيبي.

اقترب منها أحد الرجال في هذه اللحظة وهو يدخن سيجاراً محشواً، تنطلق منه أبخرة زرقاء ،ينفث الدخان في وجهها وهو يقول بلهجة عابثة:

– ما تيجي أقولك كلمتين يا مزة.

تبتعد منه مشمئزة ويندفع (حسام) الصغير نحو الرجل، يلكمه بيديه الصغيرتين على قدمه هاتفاً:

– اوعى تقرب من ماما.

يزيحه الرجل بلامبالاة ويقترب من (وفاء)، التي شهقت مع سقوط ابنها أرضاً، واندفعت محاولة التقاطه،وهي تهتف:

– ابني يا حيوان.

يمسكها الرجل من ذراعيها قبل أن تبلغ ابنها، ويحاول أن يضمها إليه قائلاً:

– تعالي بس.

تحاول مقاومته ونظرها معلق بابنها، الذي هبط من على الأرض، وفي تلك اللحظة سمعت طرقاً عنيفاً على باب المنزل، فانتفضت قبل أن تسمع صوتاً غليظاً من خلف الباب:

– افتحوا الباب.

هرعت إحدى السيدات لتفتح الباب، بينما ترمق (وفاء) المسرحية التي تحدث من حولها ذاهلة في البداية، ثم انقلبت هذه المشاعر إلى غضب ممزوج بالكراهية، عندما شاهدت بعض رجال الشرطة يدلفون إلى المكان وعلى رأسهم الوغد..

(بسيوني)..

يدخل متغطرساً وهو يشير لرجاله قائلاً:

– لموا الموسات دول كلهم وحطوهم عالبوكس.

ثم ينظر إلى (وفاء) التي يتشبث بها ابنها الخائف، بينما لا يزال الرجل ممسكاً يديها ويشير إليها (بسيوني) قائلاً:

– وهاتوا دي كمان..يالا.

تخرج من الصدمة التي حدثت لها بسرعة وهي تهتف به مخلصة يديها من الرجل الممسك بها:

– تصدق إنك حيوان، وانا اللي كنت فاكراك جيتلي ابني أتاريك انت اللي خاطفه أصلًا من الاول.

ترتسم على شفتيه ابتسامة هازئة، بينما يندفع رجال الشرطة نحوها ليمسكوها، يضعون الملاءات على أجساد النساء الأخريات، يقودونهم مع الرجال نحو الباب، بينما يقترب منها (بسيوني) قائلاً:

– ماكنتش عاوز أستخدم الأسلوب ده معاكي بس انتي اللي

اضطريتيني لكده، أنا استعملت معاكي كل الأساليب الكويسه وعملت معاكي اللي مش ممكن أعمله مع حد تاني، لكن انتي اللي عاوزه كده بقا.

تلاحقت أنفاسها من فرط الغضب، ولم تستطع أن تنبس ببنت شفة، بينما يشير هو للرجلين الممسكين بها ليفلتاها، ثم يقول لهم:

– سيبوها وخليكوا واقفين بره لحد ما أكلمكم.

يطيعه الجميع، وتلقي عليها (كريمة) قبل أن تخرج نظرة هازئة قبل أن تمصمص شفتيها، بينما ينصرف الجميع ويغلقوا الباب ورائهم، فيجلس (بسيوني) على أقرب مقعد قابله، يضع ساقاً على ساق، يخرج سيجارة يضعها بين شفتيه ويشعلها، ينفثها وهو ينظر إلى (وفاء) التي تقف مع ابنها، تنظر إليه نظرات تنطق بأعتى معاني الكراهية والغضب، يقول لها:

– شوفي بقا أنا راجل دوغري.. دلوقتي ممكن بمنتهى السهولة أعملك فضيحة في المنطقة كلها، والتهمة هاتليسك يعني هاتليسك، وحتى لو طلعتي منها براءة انتي عارفة الناس هنا مش هاتصدق انك بريئة، وهاتفضل سيرتك على لسانهم لحد آخر يوم في عمرهم إنك اتمسكتي أداب، وابنك الحلو ده العيال هاتفضل تعايره لحد ما يتعقد..صدقيني أنا شوفت حالات زي كدة كتير.

تقول له من بين أسنانها:

– إنت بتعمل كده ده ليه؟..عاوز مني إيه ما تسيبني في حالي.

يبتسم ابتسامته المقيتة، وهو يلتقط نفساً عميقاً من سيجارته ويقول:

– زي ما قولتلك قبل كده وهاقولهالك تاني.. أنا طالب القرب منك، مش شايف حد غيرك ، عاوز أكمل بقية حياتي معاكي.

– وانا قولتلك إني مش بفكر ف حاجة زي دي دلوقتي.. هواجواز غصب والا إيه؟

– لا مش غصب، ولو كنت عاوز غصب كان زماني متجوزك، انتي مش متخيله أنا ممكن أعمل إيه.

يتشبث بها ابنها أكثر، فتربت عليه مهدئة وهي تقول:

– لا عارفه.. واتأكدت إنك انت اللي عملت تمثيلية خطف ابني (حسام).

يصفق بيديه وهو يقول:

–برافو أنا قولت بردو إن دماغك نضيفه وهتعرفي كده، وهتعرفي كمان إني عملت كده عشان تبطلي تبصيلي البصة بتاعتك دي، وتعرفي إني عملت كل ده عشان أنول رضاكي وتحسي أد إيه ممكن أحميكي وأصونك، وانا في الأول والآخر غرضي شريف.

تقلب الأمر في رأسها لتجد مخرجاً مما هي فيه، فتقول له:

– خلاص..يبقى تديني فرصة أفكر.

تتهلل أساريره ولا يكاد يصدق إنها قد توافق أخيراً، لكنه يحاول أن يتمالك نفسه وهو يقول لها:

– بس أنا مش عاوزك تفكري كتير قدامك يومين وتقرري وتقوليلي.

– أوك.

ينهض من على المقعد، ويقترب منها ليربت بيده الغليظة على رأس ابنها، وهو ينظر إليها قائلاً:

– صدقيني مش ها تندمي.

يخفل منه (حسام) بينما يبادلها هوالنظرات، وتحاول أن تسيطر على أعصابها كيلا لا تبصق على وجهه، وهو يغادر قائلاً:

– مع السلامة يا ست الكل.. هاكلمك بعد يومين.

يغادر الشقة بأكملها، بينما تقف هي جامدة بعد ذلك الموقف، وفكرة واحدة تدور في رأسها، وهي تنظر لصورة زوجها الراحل..

ماذا يمكن أن تفعله للتخلص من هذه الورطة؟

***

طبول تدق في رأسها وصداع عنيف يكتنفها، وهي تفيق إثر تلك الضربة التي تلقتها على صدغها، تحاول جاهدة أن تفتح عينيها، تحاول رفع يدها لتتحسس رأسها مكان الضربة، لكنها تكتشف أنها مقيّدة، تقول بصوت واهنٍ مغالبه غثياناً يوشك على أن تجعلها تقيء:

– أنا فين؟

تسمع صوتاً مألوفاً لم تسمعه منذ زمن بعيد يقول لها:

– انتي في الأودة الضلمة اللي ياما حدفتينا فيها يا أبلة (سناء).

تفيق ويعود إليها إحساسها بالواقع في هذه اللحظة، وتفتح عينيها عن آخرها لتحدق مذهولة في (هشام) الواقف أمامها، لا تعرفه في البداية وسط التشويش البسيط على عينيها، لكنها بعد تدقيق بسيط تتعرفه، فتصف في دهشة:

– (هشام)؟!!

(سناء) السيدة الدميمة التي تعدت الأربعين من عمرها من دون أن يطرق باب أهلها وباب قلبها أحد، وكأن المجتمع بأكمله يعاقبها على ملامحها القبيحة، تاركاً إياها تراقب كل من حولها وهم يعيشون حياة طبيعية مع زوج طالما تمنت أن يكون من نصيبها، ومع أطفال عاشت تحلم بهم كأي أنثى في الوجود..

(سناء) التي بدلاً من أن يجعلها هذا الأمر تفرغ طاقة حنانها وعطفها على الأطفال، تستبدلهم بنيران الحقد والحسد والغضب والكراهية لنصبهم على أطفال الملجأ، محيلة حياتهم جحيماً..

(سناء) التي تجلس الآن مقيدة تحت رحمة (هشام).

يقترب منها وسط الظلام الخافت الذي يبدده قليلاً ضوء مصباح صغير جداً، بحيث تستطيع أن ترى قليلاً، ويقول لها بصوت كالفحيح:

– أيوه (هشام) يا أبله، كويس إنك لسه فاكراني.

يمتلىء قلبها بالخوف بعد أن اكتشفت أنها مقيدة بالحبال إلى

كرسي داخل تلك الحجرة المظلمة بالملجأ، مما جعلها تهتف بصوت عالٍ:

– الحقوني..الحقني يا (متولي).

يطلق (هشام) ضحكة ساخرة وهو يقول لها:

– (متولي) دلوقتي مش ها يقدر يسمعك ولا يسمع أي حد تاني في الدنيا، عمومًا انتي مهما صرختي محدش ها يسمعك.

تواصل إطلاق صرخات الاستغاثة، بينما يرمقها (هشام) بلا مبالاة، حتى تنتهي تماماً فتقول له بصوت مرتجف بعد أن وجدت أنه لا فائدة من الصراخ:

– (هشام) يا حبيبي..انت رابطني كده ليه طيب؟

يطلق تنهيدة حارة وهو يقول لها بصوت عالٍ:

– رابطني كدة ليه؟.. يا١١ فيه ألف سبب وسبب يا أبلة، يمكن عشان الليالي اللي قضيتها انا وبقية العيال في الأودة دي بعد العلقة اللي بتاكليهالنا.. أو عشان الأيام اللي حرمتينا فيها من الأكل والشرب، أو معرفتك إن (متولي) الحارس لما كان بيقى متخانق مع مراته وعاوز يطفي شهوته الحيوانية، فميلاقيش غيرنا يعمل معاهم كده.. أو يمكن عشان إنتي معندكيش قلب ولا رحمة.

تحاول التملص من قيودها المحكمة وهي تقول له:

– أنا كنت بعمل كده عشان مصلحتكم عشان تطلعوا رجالة وتعتمدوا على نفسيكم، ثم ده جزاتي بعد ما أهاليكم رموكم.

ينتفض عند هذه النقطة، ويمسك فمها بيديه ليسكتها وهو يقول لها غاضباً:

– إذا كان على أهلي فهما خدوا جزاؤهم وكمان (متولي).. أنا سيبتك انتي لغاية دلوقتي عشان آخد حقي منك براحتي.

تتسع عيناها ذعراً مع تلك النظرة الرهيبة من عينيه وسط الضوء الخافت، بينما تركها واتجه إلى تلك الطاولة الموجودة بالحجرة، يأخذ من عليها عصا خشبية غليظة، ويتأملها قائلاً:

– نفس العصايه اللي كسرتيها على ضهري قبل كده، عارفه أحلى حاجة بقا اكتشفتها في الاوده دي إيه، إنما ما بتطلعش صوت بره.

تحاول السيطرة على صوتها المرتجف وتستعطفه قائلة:

– يا (هشام) أنا ست كبيرة وكنت بحاول آخد بالي منكم، ده جزاتي ف الآخر!!

يقترب منها وهو يرفع العصا قائلاً:

– وأنا بقا هاكافأك على الموضوع ده.

يهوي بالعصا على قدميها، فتطلق صرخة متألمة عالية تردد صداها في الحجرة، وإن لم يتجاوزها كما قال لها..

ولم تكن هذه سوى البداية..

فلمدة ساعة كاملة، كان (هشام) يذيقها العذاب ألواناً..

(هشام) الذي فعل في بضعة أيام مالا كان أن يتصور أن يفعله في حياته كلها، منذ أن التقى بـــ(عماد) ثم (مطرون)..إن مين يقتل والده حتى ولو لم يكن قدد رآه غير مرة واحدة، ثم يقطع رأسه تنفيذاً لطلب (مطرون) الذي كان يحتاج لرأس رجل مقابل أن ينفذ لـــ(هشام) طلباته، لقادر على أن يفعل أي شيء آخر..

إن من يذهب لتلك المنطقة المقفرة حاملاً رأس أبيه في حقيبة، ثم يضعها بالقرب من إحدى المقابر، ويجرح يده لتتساقط بضع قطرات من دمه على الرأس، ثم يقوم بدفنها بعد قراءة تعاويذ أملاها عليه (مطرون)، لقادر على أن يقوم بقتل (متولي) الحارس بعد تقييده وفعل ما كان يفعله به وبالأولاد رفاقه الذين كانوا معه بالملجأ، ثم قتله في النهاية..

إن من يقم بعمل هذه الأشياء لقادر بالفعل على تكسير عظم (سناء)، ثم صعقها بالكهرباء وكيها بالنار..

لذلك بعدما شعر أنه انتهى تقريباً، وكانت (سناء) أمامه منهارة تماماً، الدماء تسيل من فتحتي أنفها، عيناها متورمتان وجاحظتان، جسدها كله يرتجف بلا انقطاع جراء الآلام الرهيبة التي تنتشر في كل خلية فيه، استل نفس السكين الذي قتل به والده واجتز رأسه، وقتل به الحقير (متولي) قبل أن يقطع به عضوه الذكري ويطعمه لذلك الكلب الأسود الذي يرافقه دوماً، ومال نحوها قائلاً:

– يمكن اللي عملته فيكي ده يكفر شوية عن اللي عملتيه فينا يا أبله.. مع السلامة.

لم يكن باستطاعتها النطق بحرف واحد، وإن كانت تتمنى أن تموت فعلاً في هذه اللحظات جراء العذاب الذي يجتاحها، وخيل إليها من وسط الغشاوة التي على عينيها ووسط الضوء الخافت بالغرفة، إنها ترى كلباً أسوداً، قبل أن يقوم (هشام) بتنفيذ أمنيتها الأخيرة..

ينغرس السكين في قلبها منهياً بذلك فصلاً جديداً من حياته..

وبادئاً فصلاً آخر..

***

لم يدر (عمر) ما الذي يحدث له تحديداً..

لقد تغير شعوره نحو (سامية) كثيراً، فبعد أن كان على وشك الخلاص من العلاقة التي تربطه بها، وجد نفسه يعود إليها مرة أخرى كما كان في البداية، بل ويزداد تعلقاً بها، بينما في نفس الوقت لم ينقص حبه لـ(نوال) ذرة واحدة، وهو ما زاد حيرته كثيراً..

هناك شيء غير طبيعي يملأ نفسه ويجعله يفعل أشياء لا يريدها..

شيء يجعله قادراً على مواصلة علاقته الجنسية مع (سامية)، وعلاقته العاطفية مع (نوال) في آن واحد..

أما (سامية) فقد تأكدت من صدق (عماد) بعدما وجدت (عمر) يعود إليها مرة أخرى، وعادت لها أيامها الدافئة، وإن كانت بعد لم تتأكد فيما إذا كان لا يزال يرافق فتاته أم لا؟..

لم تكن تعرف أن (عماد) نفذ لها طلبها الخاص بأن يعود إليها مرة أخرى، لكنه لم ينفذ الجزء الأخر بجعله لا يرى سواها لعرض في

نفسه..لذلك فقد تلقى (عمر) تلك المكالمة من (نوال) في ذلك اليوم،تطلب مقابلته في ذلك المطعم الذي تقابلا في للمرة الأولى، يندهش من صوتها الحزين على غير العادة، ولكنه يلبي طلبها، يذهب للقائها في المطعم، يجدها جالسة في انتظاره، يغزو الحزن ملامحها على الرغم من إشراقة وجهها عند رؤيته، يجلس قبالتها وهو يقول لها بصوت مليء بالقلق:

– مالك يا (نوال) إيه اللي حصل؟

– إزيك يا (عمر)؟.. أنا قلت لازم أقابلك وأقلك الكلام ده هنا، مكنش ينفع أقوهولك على التليفون.

زاد شعوره بالقلق من كلامها،فقال لها:

– في إيه بس قلقتيني؟

وجد شفتيها ترتعشان وتحاول جاهدة أن تمنع دموعاً توشك على النزول من عينيها وهي تقول:

– امبارح كان عندنا (بيتر) وأهله..وجم طلبوني رسمي من بابا.

شعر بصاعقة تضرب كيانه، وحاول السيطرة على أعصابه وهو يقول:

– وبعدين إيه اللي حصل؟

تقول بصوت مختنق:

– ده كان اتفاق بابا وعمي من الأول.. إني لما أخلص الجامعة

اتجوز (بيتر)، وأنا خلاص في السنة الأخيرة. وهما جم امبارح عشان نتفق على ميعاد الخطوبة.

سألها وغصة في حلقه:

– وانتي رأيك إيه؟

تنهد وهي تشيح بصرها عنه:

– أنا مقدرتش انطق بكلمة وأنا قاعدة.. مينفعش إني أقولهم في وسط القعدة إني بحب واحد تاني.. ومسلم كمان، إيه العمل دلوقتي يا (عمر)؟ المفروض إن الخطوبة هتكون بعد شهرين أكون خلّصت امتحانات.

يحسم أمره ويقول لها:

– مفيش غير حل واحد، إن الكل يعرف بعلاقتنا وبحبنا واللي يحصل يحصل.

– ياريت كان الموضوع يبقى سهل زي مانت بتقول.

يحاول طمأنتها قائلاً:

– إن شاء الله.. بس لازم بردو الواحد يفكر في طريقة كويسة عشان نعلن حاجة زي دي للكل.

– أنا خايفة أوي يا (عمر) وحاسه إن اللي بنعمله ده غلط.

– الحب عمره ما كان غلط.. العادات والتقاليد اللي حوالينا هي اللي غلط، ومش هي دي اللي هاتقدر تفرقنا عن بعض، أنا بحاول

أشوف حل للمشكلة دي، وان شاء الله هنلاقي.. احنا نيتنا كويسة.

تقول له وهي تمسح دمعة غلبتها ونزلت من عينيها:

– ياريت يا (عمر).. أنا مش عاوزه أخسر كل حاجة، مش عاوزه أخسرك وفي نفس الوقت مش عاوزه أخسر أهلي.

يمد يده ليمسك يديها للمرة الأولى، فأجفلت لوهلة لكنها شعرت براحة واطمئنان فتركتها ترتاح في يده، وهو ينظر لعينيها كعادته قائلاً:

– محدش فينا ها يخسر حاجة.

بث كلامه اطمئناناً في قلبها، وزادها لمسته الحانية ليدها ونظرة عينيه ثقة، وهي تقول له:

– آمين.

– وإذا كان على الناس فلازم يرضوا بالأمر الواقع، و..

قبل أن يتم جملته فوجيء بها تسحب يدها من يده، وتتسع عيناها ذهولاً وذعراً، وهي تنظر إلى ما خلف كتفه، وسمع هو صوتاً يهتف خلفه:

– (نوال)؟!!

بينما هتفت هي بصوت ذاهل مرتجف:

– (بيتر)؟!!

***

10

– هيتحقق طلبك يا (بسيوني).

– تسلم يا مولانا.

ينصرف (بسيوني) من عند (عماد) بعد طلبه منه بأن توافق (وفاء) على الزواج منه، فبرغم تأكد (بسيوني) من إنها ستوافق على الرغم منها، إلا أنه كان بحاجة إلى أن تحبه..

يعلم إنها لن تستطيع في النهاية وبعدما فعل فعلته أن ترفضه، لكنه كان يريد أن يجعلها تحبه كما يحبها..

هل عرف قلب (بسيوني) الحب؟..

لا نستطيع الجزم بهذا خاصة مع شخص مثله، ولكن يمكننا القول أنه يرغبها ويشتهيها ويريدها لنفسه، إن (وفاء) بالنسبة له كالفاكهة المحرمة المرغوبة، كلما صعب الوصول إليها كلما زاد تعلقاً بها، وتاريخه الطويل مع النساء اللاتي أتين له طواعية أو إكراهاً أو قام باغتصابهن يجعله يستطيع الحصول عليها بسهولة، لكنه لا يريد هذا..

يريدها أن تأتي إليه طواعية،أن ترغب به كما يرغب بها..

لذلك فلم يكد يسمع عن (عماد) وكلام الجميع عنه، حتى ذهب إليه بلا تردد..

أما بالنسبة لـ(عماد) فإنه قبل دخول أي شخص عليه، يكون (مطرون) قد أخبره – وذلك بمساعدة شياطينه – عن كل التفاصيل الخاصة بهذا الشخص، وماذا يريد منه، لذلك يستطيع منذ الوهلة الأولى أن يبهر القادم إليه بكم المعلومات التي يعرفها عنه، ويجعله يثق فيه تماماً..

لا يحب إبليس عمل الخير، وإذا أراد (عماد) التقرب منه أكثر لزيادة قوته ونفوذه، فعليه تحويل هذا الخير إلى شر، حتى وإن أقنع الناس أنه يفعل خيراً في بداية الأمر، لكن الغرض الأساسي أن ينقلب في النهاية إلى ما يحبه الشيطان..

هذه هي حقيقة الأمر وما يفعله السحرة، أن يزينوا للناس أنهم يفعلون الخير لكنهم يقلبون الحق إلى باطل، فلا يأتي الخير أبداً ممن يستنجد بغير الله..

لذلك يقبل (عماد) مساعدة من يطلبون حتى الخير لعلمه أنه سينقلب إلى ما يريد..

لم يكن (عماد) على دراية بما يفعله (هشام) أو بما يخطط له (مطرون)، الذي كان يساعد (هشام) فيما يفعله، في مقابل أن يتأكد أن الأخير يقوم بتنفيذ الطقوس اللازمة لتحريره من قيوده..

– بضعة أيام فقط هي كل ما أريده.

يقولها (مطرون) لنفسه، وهو يراقب سيده الذي يستعد لتنفيذ طلب (بسيوني)..

يقولها متحسساً تلك الأصفاد التي تكبل حريته..

يقولها محاولاً تحمل الأيام الباقية كما تحمل السنوات الطوال التي كان فيها عبداً..

أما (بسيوني) فقد شعر بسعادة طاغية بعد مفارقته لذلك الساحر، حتى عند عودته إلى منزله وقت الغداء، فقد وجدته (سميحة) باش الوجه ومبتسماً على غير العادة، فبادرته قائلة بلهجتها المتهكمة:

– يا ترى ايه اللي مفرحك يا سيد الرجال؟.. ما تفرحنا معاك والا أنا مكتوب عليا الهم والغم بس.

يتجه إلى طاولة الطعام متجاهلاً إياها، يشمر عن ساعديه، وهويقول لها:

– بلاش يعني الواحد يفرح شوية يا وش النكد؟

تتجه لتجلس بجواره على الطاولة وهي تقول:

– لا بس انت دايمًا داخل عليا بالوش الخشب.

بدأ في التهام الطعام بشهية فتأكل معه، وأسئلة عديدة تدور في رأسها عن تغيره المفاجيء، فتقول له:

– أنا ما شوفتكش مبسوط كده إلا أول أسبوع بعد الجواز.

يتضايق من داخله ويلعن تلك الحاسة السادسة التي تتمتع بها

أغلب النساء، لكنه يواصل الالتهام محاولاً عدم الدخول معها في ذلك الحديث، الذي يكاد يفسد شهيته..

برغم كل مغامرات (بسيوني) النسائية، التي كان متأكداً أن (سميحة) تعرف ولو جزء بسيط منها بحكم عمله وموقعه، إلا أنها تعلم أنه في النهاية يعود إلى منزله وينام بجوارها على سرير واحد، كل هذا من الممكن أن تغفره له طالما لم يصل الأمر إلى علاقة رسمية مع واحدة أخرى، وسيحرص أشد الحرص على ألا تعلم شيئاً عنه وعن (وفاء)..

حتى أعتى وأقوى الرجال لا يستطيع مواجهة غضب المرأة، وما يمكن أن تفعله عندما لا يعد هناك ما تخسره..

حتى أشرس الرجال يؤثر السلامة عند الدخول مع المرأة في مثل هذه المناقشات، التي تنتهي بأن رأيها هوالصائب دائماً، وأن الرجال لا يفقهون شيئاً..

إن القضايا التي عاصرها وشاهدها عن هذا الأمر طيلة عمله بالشرطة تؤكد له هذا الأمر، ولن يكون تعبئة الأزواج في أكياس بلاستيكية أو إذابتها بالأحماض الكيماوية هو آخرها، ولن يكون هو بعيداً عن هذا الأمر خاصة لما لـ(سميحة) من طبيعة شرسة..

لكل هذه الأسباب فقد آثر السلامة، وهويقول لها مزدرداً طعامه:

– مافيش يا (سميحة).. قضية كانت مستعصية علينا من شهر تقريبا وعرفنا نجيب قرارها، بلاش الواحد ينبسط شوية يعني.

ترمقه بنظرة حادة وهي تقول:

– ومالو يا (بسيوني).

تمتليء أعماقها بالشك، بينما يمتليء ذهنه بصورة (وفاء)، منتظراً تلك اللحظة التي ستقوم بمكالمته بها، ناقلة إليه خبر موافقتها..

وتزداد شهيته للطعام أكثر..

تردد ذلك الصوت المحبب لقرقرة الشيشة التي يجذب منها المعلم (جودة) أنفاساً عميقة، وهو يجلس على كرسيه بمقهاه، يتابع بعينيه اللتين لم تفقدا نشاطهما بعد كل ما يدور حوله، تدور عمليات حسابية للطلبات التي تقدم إلى الزبائن بالإضافة إلى عددهم، يتابع الشباب الضائع والرجال المحطمين الذين يدخلون إلى تلك الحجرة الخفية خلف طاولة تحضير المشروبات للذين يدخلون سعياً وراء نشوة زائلة تمتد لساعات، قبل أن يخرجوا منها أشباه رجال، بعيون زائغة تحمل نظرة لامبالاة خاوية..

ينفث الدخان من منخريه، تعود إليه ذكريات شبابه وفتونته، يتحسر على تلك الأيام، ويلعن في نفسه ما آل إليه حاله الآن، يعود ليرتطم بصره بالنقود التي تملأ الدرج أمامه، ويتذكر رصيده العامر بالبنك، ينسى مؤقتاً كل ما يفعله بعد أن تعمي هذه الأوراق بصره، يرتفع بصره ليشاهد (هشام)..

هناك شيء ما مريب بخصوص هذا الصبي..

إذا كانت إصابته التي أصيب بها منذ فترة قد شفيت بعدها بيومين فإن الله قادر على كل شيء، ولن يستطيع هو أو غيره أن يتدخل في

مثل هذه الأمور، لكن أن تتغير شخصيته بهذه الطريقة اللافتة للنظر، وأن تزول نظرة عينيه المذعورة الخانعة دوماً، وتحل محلها تلك النظرة القوية الواثقة، يذهب صوته المتردد المرتجف بلا رجعة مستبدلاً إياها بنبرات صارمة، أن تحدث له كل هذه الأمور فأن هناك شيئاً غير طبيعي يحدث من حوله..

المهم أنه لازال في طوعه ولا يسبب له المشاكل، يتأكد من أنه لا يتعاطى المخدرات أو أي شيء من هذا القبيل؛ لأن المعلم يعلم جيداً أن من يتخذ هذا الطريق فإنه يذهب بلا رجعة، فقد كان حازماً وصارماً بصدده فيمن يعمل عنده، بألا يمسها أحد منهم أو يقترب منها نهائياً..

ينفض هذه الأفكار عن ذهنه مع ذلك تردد رنين هاتفه النقال برنة مميزة، يضع الهاتف على أذنه قائلاً:

– أيوه يا (سامية).

يستمع إليها للحظات ثم يقول لها:

– روحي بس ما تتأخريش عندها.. يالا مع السلامة.

يغلق معها المكالمة..

(سامية) التي أعادت إليه شبابه وحياته في باديء الأمر، قبل أن تعيد إليه هرمه وعجزه مرة أخرى، استعمل كل الوسائل المعروفة ليستطيع أن يوفيها حقها في فراش الزوجية، محاولاً التغلب على سنوات عمره التي تعدت السبعين، ينجح الأمر قليلاً في البداية، ثم لا يلبث أن يعترف بأن الشيخوخة والزمن لا يرحمان..

(سامية) أيضا تغيرت قليلاً كما تغير (هشام)، لم تعد تتذمر وتشتكي كما تفعل غالبية النساء، لم تعد تصاب بالعصبية لأتفه الأسباب، لم يعد يصيبها التذمر والضجر إذا لم يستطع إكمال مهامه الزوجية، صارت أكثر هدوءاً وأقل عصبية كما لو رضيت بالأمر الواقع، والحقيقة أنه كما كان هذا الأمر يريحه إلا أنه كان يصيبه بالقلق أيضاً..

يعزي هذا إلى تلك الطبيعة العجيبة للنساء وينسى الأمر مؤقتاً، مع عودة هاتفه النقال للرنين، يلقي نظرة على شاشته مطالعاً ذلك الرقم غير المسجل عنده، يضغط على زر الإجابة قائلاً:

– ألو..مين معايا؟

يسمع ذلك الصوت الذي بث في نفسه قشعريرة غير مبررة:

– خلي بالك من مراتك يا معلم، فيه حاجات كتير بتحصل من ورا ضهرك.

ينعقد حاجبيه دهشة في البداية لم تلبث أن تحولت إلى غضب شديد، جعله يهتف:

– انت مين يا جدع انت وايه اللي بتقوله ده؟

يعود ذلك الصوت قائلاً متجاهلاً أسئلته:

– الست بردو صغيرة ومحتاجه حاجات أكتر م القلوس.. وانت أدرى بقا يا معلم.

ينهض من مقعده متجاهلاً أنظار الزبائن الذين جذبهم هتافه منذ البداية، هاتفاً والدم يغلي في عروقه:

– أدرى بإيه يابن ال.....أنا هعرف اجيبك واعلمك الأدب.

قال الصوت:

– أنا حذرتك وقد أعذر من أنذر.

ينهي المكالمة تاركاً المعلم في غضبه ودهشته، قبل أن يذهب إليه (مجدي) العامل عنده، سائلاً إياه بدهشة:

– مالك بس يا معلم كفا لله الشر..!!

يلتقط المعلم أنفاسه اللاهثة من فرط الانفعال، يحاول السيطرة على أعصابه مع نظرات الزبائن والخيطين به، وهو يقول له:

– مفيش حاجه ده واحد قليل الأدب كان بيشتم بس.

يعود كل منهم إلى ما كان يفعله بعد هذه الإجابه، و(مجدي) يقول له:

– أنا عارف ولاد ال....دول عالم فاضية.

يعود المعلم ليجلس على كرسيه بنظرات شاردة وهو يقول له:

– ارجع انت لشغلك وشوف الزباين.

– أمرك يا سيد المعلمين.

ينطلق الفتى إلى عمله، بينما يعود المعلم ليلتقط أنفاس شيشته محاولاً العودة إلى هدوئه السابق، محاولاً احتواء تلك العاصفة التي تدور في عقله، لاعناً ذلك المتصل الذي اتصل في وقت مناسب لزيادة وتأكيد شكوكه حول زوجته الشابة، كما لوكان يعرف أنه كان

يفكر فيها في هذه اللحظات..

ولم يكن يعرف أن المتصل فعلاً كان يعرف هذا الأمر..

إن من يتخذ الشياطين عوناً له يستطيع معرفة مثل هذه الأمور بسهولة..

***

المصائب لا تأتي فرادى..

لم يدرك (عمر) ويتأكد من صحة هذه المقولة إلا في تلك اللحظة التي كان فيها مع (سامية) صباح ذلك اليوم، يجلسان معاً على السرير بعد الانتهاء من الطقوس المعتادة، وهي تقول له بصوت ثابت:

– لازم نخلص من المعلم.

لا يدري أصلاً كيف طاوعته نفسه أن يذهب إليها بعدما حدث الليلة الماضية مع (نوال)،عندما وجدت ابن عمها الذي يعتبر في حكم خطيبها حالياً يقف أمامها، بينما تستكين يدها في يد شخص آخر..

هل كان وجود (بيتر) في ذلك المطعم بالتحديد وتلك الساعة بالظبط مجرد صدفة؟

إن دخوله المكان وتفقده للوجوه قبلها لا يدع مجالاً للشك إنها لم تكن مجرد صدفة..

يبدوأن (عماد) لا يضيع وقته في مثل هذه الأمور..

تقدم (بيتر) إلى الطاولة التي يجلسان عليها بجثته الضخمة، يتطاير

الشرر من عينيه، وهو يقول لها:

– إنتي يا (نوال) تعملي كده؟.. أنا ماكنتش مصدق لما عرفت وكنت باتمنى أكون غلطان.

ينهض (عمر) لمواجهته، يقف ثابتاً أمامه وهو يقول:

– ويا ترى مين حضرتك؟

يرد (بيتر):

– أنا أبقى ابن عمها وخطيبها.

يتردد (عمر) لثوانٍ قبل أن تقول (نوال):

– انت لسه مش خطيبي يا (بيتر)، ومالكش حق تقوللي أعمل إيه أو معملش.

ينقلب الشرر إلى ذهول لثوانٍ في عينيه، قبل أن يقول:

– بس أنا ابن عمك.

ترد عليه:

– وده ما يدكش الحق إنك تحجر على حريتي وتراقبني كمان.

يعود الغضب إلى صوته وهو يقول:

– لا يا بنت عمي.. يديني الحق لما تكوني مع واحد مسلم، ساعتها يبقى لازم أتدخل ومش أنا لوحدي بس.. العيله كلها لازم تتدخل.

انعقد حاجبا (عمر) و (نوال) في دهشة، قبل أن تقول الأخيرة بعد أن خيل إليها أنها عرفت كيف عرف ما عرف:

– كده يا (لينا).

كانت أنظار بعض الحاضرين تتابع ما يحدث، وأراد (عمر) إنهاء هذا الموقف سريعاً، بينما يقول (بيتر):

– لا مش (لينا) اللي قالتلي، وسواء هي أوغيرها المهم إن الكلام طلع مظبوط، عامة إحنا مش هنتحاسب هنا دلوقتي لما نروح البيت.

***

عاد (عمر) إلى اللحظة الحالية، نظر إلى (سامية) التي تستكين بجواره عارية تقريباً، بعد أن نطقت تلك الجملة، وليس على وجهها أي تعبير لما تنتويه من تلك الكلمات التي قالتها..

قالتها كأنها تدعوه للعشاء الليلة، أو تخبره بنبأ سار..

يا للنفس البشرية وتعقيداتها خاصة عندما تكون خاصة بالنساء، لن يستطع فهم هذه التركيبة أبداً، والحقيقة أنه ليس لوحده فقط..

المهم أنه ظل لثوان لم ينطق بكلمة واحدة، مما جعلها تميل نحوه بجسدها، مداعبة عنقه بأطراف أناملها، وهي تهمس في أذنه:

– ايه مالك يا (عمر)؟.. مش نفسك نتجوز رسمي ونبقى مع بعض براحتنا على طول.

لو أنه كان في الظروف العادية لرفض الفكرة من أساسها، ولما

كان موجوداً أصلاً في تلك اللحظة، لكنه يجد نفسه غير مستنكر للفكرة تماماً رغماً عن إرادته، فيقول لها مترددا:

– أكيد عاوز أبقى معاكي بس مش بالطريقة دي.

تواصل الهمس في أذنه:

– للأسف هي دي الطريقة الوحيدة.. نخلص من المعلم ونبقى مع بعض على طول، هاخد أكبر نصيب من الورث خصوصًا لما أهله وولاده يعرفوا إني حامل منه قبل ما ربنا يفتكره.

ينتفض جسده عند هذه اللحظة، يلتفت إليها وهو يهتف مبهوتاً:

–حامل؟!!

توقعت ردة الفعل هذه، ولم تتلاش الابتسامة من على شفتيها، وهي تعود لتميل نحوه قائلة بلهجة أشعرته بأنها تعبان:

– أيوه حامل.. هو ماقربش مني من أكتر من شهرين، لكن طبعًا محدش غيرك انت وهويعرف بكده، وأكيد انت عارف اللي في بطني دلوقتي يبقى ابن مين، عشان كده لازم نخلص من المعلم وأهله كمان لازم يكونوا عارفين إني خلصت منه، وبكده نبقى كسبنا كل حاجة.

ارتج عليه وهي ترمقه بنفس النظرة والابتسامة، تداعب وجنته بأناملها بينما ظل هو صامتاً، وهي تسأله:

– إيه..شكلك مش مبسوط لما عرفت إني حامل منك.

يقول لها ساهماً:

– إنتي بصراحة فاجئتيني.. يعني جايه تقوليلي نقتل المعلم وفي نفس الوقت بتقوليلي إن فيه روح تانيه هتيجي بداله، والروح دي تبقى حته مني..أنا متلخبط.

واصلت الأفعى بث سمومها في أذنه:

– لا تتلخبط ولا حاجة، الموضوع كله سهل وبسيط.. المعلم زيه زي أي راجل كبير وعضمته كبيرة ممكن تجيله أزمة قلبية، يعني محدش هيشك في أي حاجة.

–ودي هاتعمليها إزاي؟

تجاوبه بكل بساطة:

–دي بقا تسيبها عليا شوية حبوب في الأكل أو الشاي بتاعه هتنهي المشكلة.

تساءل مندهشاً:

– أما الموضوع سهل كدة بالنسبالك وممكن تعمليه لوحدك، أومال بتقوليلي ليه الكلام ده وإننا مش انتي بس عاوزين نخلص منه؟

مالت طابعةً قبلة على وجنته، وهي تعاود الهمس:

– لأن أنا مش هاعمل كل ده إلا عشان نبقى مع بعض، فلازم تبقى عارف كويس إني ممكن أعمل أي حاجة عشانك، وكمان تبقى فاهم إن إحنا الاتنين مع بعض في الموضوع ده، يعني لو حاولت تغدر بيا أو تسيبني ساعتها هايبقى عليا وعلى أعدائي، مش هيبقى على حاجة يا (عمر)..فهمت دلوقتي والا لأ؟

نظر (عمر) إلى عينيها، وخيل إليه أن ينظر إلى ثمرة مفترسة، لكنه لا يستطيع الفكاك منها..

أراد أن يغمض عينيه ويفتحهما، آملاً أن يكتشف أنه كان يحلم، أو أن ما يحدث الآن هو كابوس سيفيق منه، لكنه يدرك أنه يعيش واقعاً مريراً..

إن المصائب فعلاً لا تأتي فرادى..!

***

11

لا يدري (هشام) كيف استطاع الوصول إلى هذه المنطقة الجبلية الصحراوية، ولا كيف استطاع تسلق تلك التلة للوصول إلى هذه الفتحة الموجودة به، والتي من المفترض تنفيذاً لكلام (مطرون) أن يقوم بدخولها..

والحق يقال فإن (مطرون) قد قام بتنفيذ كل ما طلبه منه (هشام)، وساعده على أن يطفأ معظم النار التي تشتعل في صدره، وأن يأخذ بثأره ممن ظلمه في حياته بدءاً من والده الذي ألقاه منذ ولادته، والذي يحمل رأسه في تلك الحقيبة التي يحملها، بعد أن قام بدفنها لمدة أسبوع كامل، ثم ذهب ليستخرجها أو يستخرج ما تبقى منها، مغالباً شعوره بالاشمئزاز في البداية، إلى أن تقيأ واستخرج ما بمعدته..

يعرف أنه لا يستطيع أن ينكث بوعده أو أن يعبث مع من هو مثل (عماد) أو (مطرون)، وأنه قد قبل منذ بادئ الأمر بالسير في هذا الطريق الذي يسلكه، وعندها لن يكون هناك مجال للتراجع..!

لم يكن يعرف ماهية هذه الأشياء التي يفعلها وطلبت منه، ولم يكن

يدري إنها جزء من طقوس، لتساعد الأمير السابق في التحرر من قيوده والعودة إلى إمارته، لكنه كان يُؤديها كما طلب منه تماماً..

إن وقوفه في تلك الساعة المتأخرة من الليل أمام تلك الفتحة المظلمة في قلب الجبل، حاملاً ما تبقى من رأس أبيه بعد دفنها مع قطرات من دمه، لهو خير دليل على أنه ينفذ الجزء الخاص به من الصفقة كما يجب..

يلمح ذلك المشعل المعلق على جانب مدخل الكهف تماماً كما رآه قبل ذلك في أحد الأفلام على التلفاز، يحمله ويخرج قداحته ليشعله، يمسكه بيده اليمنى لينير له الطريق، بينما يمسك الحقيبة بيده اليسرى..

يمكننا الآن أن نتخيل دقات قلبه التي تنبض بسرعة جنونية، أنفاسه اللاهثة، العرق الغزير التي يتصبب على جبينه ويغرق ما تحت إبطيه، توتره وتحفزه كهر، الشعر المنتصب على ساعديه، نظراته المذعورة التي تجوب أرجاء الكهف الضيق في أوله ثم يتسع تدريجياً، خطواته المترددة التي يطأ بها على الأرضية غير الممهدة..

يلعن نفسه وما قادته قدماه إليه، يتمنى أن يضرب بكل الوعود عرض حوائط الكهف، وأن يلقي المشعل الذي يبعث خيالات في المكان تثير رعبه أكثر مما تبعث الطمأنينة، يردد بشفاه مرتجفة بعض آيات مما يحفظه من القرآن، يبحث بعينيه بين الجدران، إلى أن يجد العلامة التي أخبره عنها (مطرون)، يرفع المشعل ليضيء ذلك المكان بعد أن توغل لمسافة لا بأس بها داخل الكهف، ليصل إلى ما يشبه

القاعة الواسعة، يتأمل ذلك التجويف الصخري في آخره، والعرش الحجري الفارغ الذي يستقر بداخله، يلتقط نفساً عميقاً، يجد مشعلاً آخراً مثبتاً على الحائط، يقوم بإشعاله بدوره، ثم يثبت مشعله الذي يحمله على الجدار المقابل ليؤمنان له إضاءة إضافية..

يضع الحقيبة على الأرض، يخرج من جيبه إصبعاً من الطبشور، يقوم برسم دائرة على الأرض على بعد مترين تقريباً من العرش الحجري، يرسم داخلها نجمة خماسية، وداخل هذه النجمة يكتب أسماءا ورموزاً غريبة لا يعرف معناها، لكنه يكتبها كما طلب منه (مطرون) بالضبط..

يبدأ في الخطوة التالية التي عليه تنفيذها، بأن يقوم بخلع ملابسه كاملة، يحاول السيطرة على ارتجاف يديه وهو يفك أزرار قميصه، يشعر بقشعريرة باردة تغزو عموده الفقري رغم الجو الخانق بالكهف..

ينتهي من عمله، يفتح الحقيبة كاتماً أنفاسه قبلها، يخرج رأس (فوزي الطرابيلي) المتحللة تقريباً، يقاوم ذلك الشعور العارم بإفراغ معدته، يضع الرأس في منتصف الدائرة، ثم يخرج تلك الرقعة الجلدية من فتحة أخرى بالحقيبة، الرقعة التي عجز في البداية عن معرفة نوعها برغم أنه يشعر أنها مألوفة، ثم أدرك بعد ذلك لماذا هي مألوفة..

ليس من الصعب تمييز الجلد البشري عن غيره..

يفتح الرقعة ويزدرد لعابه، قبل أن يقوم بقراءة تلك التعاويذ التي كالعادة لا يفهم منها حرفاً بصوت مرتجف خافت في البداية، يقرأها

وهو الذي لم يتلق تعليماً كافياً في الملجأ يجعله يستطيع قراءة حروف لغته العربية، لكنه يجد لديه قدرة ما تجعله يقرأ هذه الكلمات، أخذ صوته يعلو تدريجياً لتردد جدران الكهف صداها، يزاح الخوف تدرجياً من قلبه، ويشعر باطمئنان وثقة عجيبتين مع مرور الوقت وترديده لتلك الكلمات الشيطانية، التي لا يفقه منها كلمة ولكن لفت نظره تكرار كلمة واحدة وهي (ساروخ).

لا يعرف (هشام) أن (ساروخ) هو الابن الأكبر لإبليس شخصياً، وأن من خالف (مطرون) مواثيق مملكته هو ابن آخر له اسمه (دهُش)، وهذا الأخير هو أقوى أولاد إبليس، ولقوته نصّبه إبليس حاكماً على جميع أبنائه مفضلاً إياه على ابنه البكر (ساروخ)، الذي يحاول (مطرون) عن طريق (هشام) الآن أن يستعطفه ويستجديه، ويعرض عليه فروض الولاء والطاعة في مقابل أن يفك قيوده وأغلاله، التي حكم بها (دهُش) عليه..

لم تكن هذه المرة الأولى فعلياً التي يحاول فيها (مطرون) أن يستجدي فيها أحد الحكام الإبليسيين لتخليصه مما هو فيه، فعبر سنوات عبوديته حاول بشتى الطرق أن يحصل على مساعدتهم، لكن طلبه كان يقابل بالرفض لعدم قبولهم أو مجازفتهم في الدخول مع صدام ضد (دهُش)، الذي يخافه الجميع ويخشاه، خاصة لو كان هذا من أجل (مطرون) مهما كان نفوذه..

لا يستطيع (مطرون) أن يطلب من أحد أفراد قبيلته أو من أي جني آخر في مملكتهم أن يقوم بمثل هذا العمل؛ لأن القوانين واضحة

في هذا الشأن بالنسبة لهم، ومن سيجرؤ على معاونته في التخلص من قيوده فإن الموت بلا رحمة هو مصيره، لذلك يجب أن يقوم به إنسي وبكامل إرادته، وأن يقوم بعمل كل الطقوس المطلوبة، وأن ينفذ التضحية المطلوبة حتى يستطيع أن تصل كلمات (مطرون) إلى (سارخ)، والذي كان آخر ورقة يلعب بها (مطرون) لعلمه أن حياته ستتوقف على ردة فعله إذا ما طلب منه هذا..

هل سيقوم (سارخ) بمساعدته ضارباً بسلطة أخيه الأصغر (دهُش)؛ لأنه يرى أن له الحق بصفته الابن الأكبر لإبليس في أن يكون حاكماً على باقي أخوته والمملكة الشيطانية، أم أنه سيخضع لأخيه ويطيع أوامره، وفي تلك الحالة ستكون حياة (مطرون) في مهب الريح بعد أن يعلم (دهُش) بما فعله؟..

لذلك بعد كل هذه السنوات التي مرت على (مطرون)، فقد وجد أنه يفضل الموت على أن يستمر فيما هو فيه، وعامة فقد فات الوقت على أن يتخذ قراراً أخراً، خاصة وهو يعلم بما يفعله (هشام) عن طريق أحد أفراد قبيلته، الذي يتبع (هشام) دوماً في صورة كلب أسود، يراقبه ويساعده ويسهل عليه العقبات والصعوبات في مقابل أن ينفذ الأخير كل ما هو مطلوب منه..

لم يكن (هشام) يعلم شيئاً عن هذا كله، ولا الطريق الذي ورط نفسه فيه، وهو يكمل ترديد التعاويذ عارياً تماماً كما ألقي على باب الملجأ، بينما هَب رياح حارة قوية داخل المكان، يتوقعها (هشام) ويتوقع بعدها ذلك الصوت العميق الذي تردد في أنحاء الكهف، وبرغم توقعه إلا أن ثقته زالت وحل محلها رعب شديد، مع تلك الكلمات التي أخذت تتردد داخل الكهف..

كلمات بصوت (سارخ).

ليس هناك وسيلة للفرار من (بسيوني)..

بحكم حياتها في ذلك الحي ومعرفتها له جيداً، فإنها متأكدة من ذلك، وتعرف أنها ليست هناك طريقة للخلاص منه إلا بالموت..

تعرف أن شقيقها (عمر) لن يستطيع مواجهته لكنه لن يتردد في هذا حال مكالمتها له، لذلك لا تريد توريطه في هذا الأمر، الذي من المؤكد أنه سينتهي به كما انتهى من قبله ممن دخلوا مركز الشرطة التابع له (بسيوني)، ولم يستطع معظمهم مغادرته على قدميه..

تعرف كيف ستكون ردة فعله هو وأمهما في حال معرفتهما أنهما من الممكن أن توافق على فعل هذا الأمر، وتعرف أنهما لا يعارضان فكرة الزواج نفسها، لكنهم سيعارضون بالتأكيد أن تتزوج وغداً مثل (بسيوني)..

إنها لا تطيقه فعلاً، لكنها ستكون مجبرة على هذا، خاصة عندما يقع بصرها على ابنها (حسام)، وهو يلهو بإحدى الألعاب الالكترونية، وترتسم على وجهه الطفولي آيات البراءة، عالمة أن (بسيوني) كما خطفه منها قبلاً، فإنه يستطيع حرمانها منه لو اقتضى الأمر في سبيل الظفر بها..

تنظر إلى صورة زوجها الراحل، تحاول طرد سيل الذكريات الذي يدور برأسها كلما تذكرته، تترقرق عيناها بالدمع رغماً عنها، مع ذلك الموقف الصعب الذي وضعت فيه.

ليس أمامها حلول كثيرة للأسف..

في ذلك العصر الذي تعيش فيه حين تكون للسلطة المطلقة الحرية فيما تفعله بدون ضابط أو رقيب، فليس هنالك حل سوى الرضوخ لها.

لذلك وبعد تفكير ليس بالطويل، وجدت نفسها تقتنع تماماً بفكرة قبول الزواج من (بسيوني) لكن مع بعض تعديلات بسيطة سوف تجريها قبل أن يلمس شعرة واحدة منها..

تمسك هاتفها النقال وتضع أمامها البطاقة التي أعطاها لها مسبقاً، تضرب على أزرار الهاتف ومع كل ضربة تشعر بها تموى على قلبها بلا رحمة، تنتظر قليلاً وتأخذ نفساً عميقاً تملأ به صدرها، قبل أن تقول:

-ألو..أيوة يا (بسيوني)..أنا خلاص موافقة.

تنتظر قليلاً ثم تقول:

- أيوه.. بس لازم نتفق على شوية حاجات الأول.. خلاص اتفقنا.. مع السلامة.

تغلق هاتفها فتغلبها دموعها وتنهمر في البكاء..

أما (بسيوني) فلا أحد على وجه البسيطة يمكنه أن يصف تلك السعادة التي شعر بها في تلك اللحظة، لكن الغريب فعلاً أنه هو من يشعر بهذا..

(بسيوني) الذي يأمر فيطاع، ويفعل كل ما يحلو له، وهو يعرف

أن لا أحد سيحاسبه، فيقتل ويزني ويرتشي كما يشاء، ولكنه رغم كل هذا يشعر بنفس فرحة الإنسان العادي عندما توافق محبوبته على الزواج منه..

– يبدوأن مولانا سره باتع فعلا.

فبعد أن كانت بالأمس القريب تكرهه وتشمئز من مجرد النظر إليه، فهي اليوم تقبل الزواج منه، واقتحام مملكتها المقدسة التي لم يجرؤ أحد بعد زوجها على عبور أسوارها المنيعة..

ينتظر مرور الساعات والدقائق والثواني بفارغ الصبر، حتى يذهب للقائها في ذلك الكوفي شوب الذي حددته كموعد للاتفاق على شروط قبولها، والترتيبات اللازمة لإنهاء ذلك الأمر..

يلاحظ الجميع تلك التغييرات التي طرأت عليه على غير العادة، حتى أنه في ذلك اليوم عندما تم عرض أحد المذانين عليه، ليحصل منه على اعتراف بخصوص أحد القضايا، فلم يقم سوى بكسر إحدى ذراعيه فقط بدلاً من أن يتم شحنه إلى (السلخانة) المفضلة إليه..

يضحك ويمزح كثيراً في وجوه زملائه، وتزداد شتائمه وقاحة وهذا دليل أكيد على سعادة (بسيوني)، يداعبه (وحيد) عندما يدخل عليه مكتبه قائلاً:

-ايه يا بيسو..انت وقعت على ورث والا إيه؟

يبتسم (بسيوني) وهو يقول:

– ليه يعني يا باشا؟

يجلس أمامه على المكتب وهو يقدم له سيجارة يشعلها قائلاً:

– الناس كلها هنا واخدة بالها انك مبسوط زيادة عن اللزوم، يا ترى إيه السبب؟

ينفث (بسيوني) دخان سيجارته قائلاً:

– شغلانه بس كانت مستعصية عليا وفضلت وراها لحد ما عرفت أجيبها.

– وهو من إمتى فيه شغلانه بتستعصي عليك؟ ثم شغلانة إيه دي اللي انا معرفش عنها حاجة.

– مش حاجه خاصه بالشغل هنا..شغلانه تبعي كده.

يهز (وحيد) رأسه متفهماً،قائلاً:

– إذا كان كده ماشي انت وشغلاناتك اللي ما بتخلصش دي.. المهم سمعت اللي حصل النهارده؟

لم يبد الاكتراث على (بسيوني) وهويسأله:

– لا..خير!!

اعتدل (وحيد) على مقعده وهويقول:

– أسرة (فوزي الطرابيلي) رجل الأعمال المشهور كانت مبلغة عن اختفائه من أسبوع تقريبا، طبعًا قلبنا الدنيا وماسيبناش أي خيط ماشيش وراه، استجوبنا كل خصومه من رجال الأعمال، وحاولنا نعرف عداواته عشان نوصل لأي حاجة ما عرفناش، لأنه حتى لما

بيخرج وبيروح أي مكان لازم بيكون معاه بودي جارد على الأقل.. المهم يا سيدي امبارح اكتشفوا جثته مدفونة قريب من الفيلا بتاعته، بس مش هو ده الغريب.

بدأ الاهتمام يبدو على (بسيوني) وهو يسأله:

– أومال إيه؟

يرد (وحيد):

– لقوا الجثة من غير راس، أما بقية الجسم فلقوا طعنتين فيها واحده في بطنه والتانيه في قلبه، وطبعًا لما لقوها اتعرفوا عليها من هدومه وشوية وعلامات أسرته قدرت تتعرف على اللي باقي من جثته، ده طبعًا لسه لما الطب الشرعي يأكد كده بنسبة ميه ف الميه.. المهم إن الدنيا مقلوبه في الوزارة دلوقتي، لأنك زي مانت عارف إن (الطرابيلي) كان ليه صلة بناس كتير هناك، هما بيحاولوا يتكتموا على الموضوع على أد ما يقدروا قبل ما الصحافة تشم خبر ويقرفونا قبل ما نلاقي أي دليل للقاتل، واللي عمله ده.

قال (بسيوني) مندهشاً:

– حاجة غريبة فعلًا.. أومال دماغه راحت فين؟ واللي خدها خدها ليه ووداها فين؟ كان فاكر إننا يعني مش هنتعرف عليه، ده يبقى قاتل غبي.

– الله أعلم هو عمل كده ليه، بس واضح إن اللي عمل كده مش حرامي مثلًا، تحس إنه واحد كان بينتقم.

هز (بسيوني) كتفيه قائلاً:

– واحد بينتقم أو حرامي أو حتى جن أزرق المهم يلاقوا اللي عمل كده، قبل ما أي حاجة تتنشر.

– انت عارف إننا حتى لو مالقيناهوش لازم نتصرف في الحالة دي.. ده مش أي واحد يتقتل.

ابتسم (بسيوني) بطرف فمه قائلاً:

– أكيد.. القضية دي لو تبع دايرتنا هنا كنت طلعتهولهم في يومها.

تبادل الاثنان الضحكات مع هذه العبارة، بينما اختلس (بسيوني) النظر لعقارب ساعته، متمنياً أن يمضي الوقت بسرعة الصاروخ، عائداً بتفكيره إلى لقائه المرتقب مع (وفاء)..

اللقاء الذي ستصير بعده ملكاً له وحده..

ولم يكن يعرف ما يخبئه له القدر..

***

كان الموقف مشتعلاً في بيت (إبراهيم موسى). يقف والد (نوال) بجوار زوجته، مواجهاً (نوال) التي تقف أمامهما في صالة المنزل، بينما تجلس (لينا) بعيداً متابعة ذلك المشهد، حيث يحتقن وجه والدها بالدماء من فرط الغضب على عكس طبيعته الهادئة، وهو يقول لـ(نوال):

– يعني مش كفاية بتقابلي واحد من ورانا وبطلع كمان مسلم،انتي عاوزه تدفني راسي في الرمل على آخر الزمن؟

تقاوم (نوال) تلك الغصة التي تسد حلقها، وتقول بصوت مختنق:

– يا بابا أنا معملتش حاجه غلط..إحنا بنحب بع..

يقاطعها والدها قبل أن تكمل عبارتها هاتفاً:

– ماعملتيش حاجة غلط؟!!.. آدي أخرة تربيتي ليكي، أنا صحيح كنت بقولك الحب مش عيب لكن يوم ما تحبي تحبي واحد مش على ملتنا.. ده اللي مش ممكن هاسمح بيه أبدًا.

تتدخل أمها في الحوار قائلة:

– نحمد الرب إن (بيتر) ما قالش لحد من أهله على اللي حصل ده، ده لوعرفوا ها تبقى مصيبة.

يقول والدها مؤمناً على كلامها:

– (بيتر) طلع جدع ووعدني أنه مش ها يقول لحد، لو أي واحد مكانه كان زمان سيرتنا على كل لسان، وكانت الناس كلت وشنا.

قالت (نوال) محاولة منع نفسها من البكاء:

– هو ده كل اللي هاتمكوا؟! محدش يعرف وشكلكوا ما يبقاش وحش قدام الناس، وأنا مشاعري ملهاش أي قيمة!! يعني هو ده اللي ربيتني عليه يا بابا.

لا يكاد يصدق والديها ما تقوله، ويضرب (إبراهيم) كفاً بكف

وهو يقول:

– أنا ربينك على أن الحب مش عيب، وإن محدش فينا يقدر يستغني عنه لكن مش بالطريقة دي.

تقول (نوال):

– الحب ما لوش طريقة معينة يا بابا..الحب أحلى حاجة في الدنيا وهي أسمى علاقة بين أي اتنين، مش هو ده كلام حضرتك اللي ياما قولتهولي.

بينما تقول أمها:

– إنتي أكيد اتجننتي، مشاعر إيه وحب اللي بتتكلمي عنهم مع واحد مسلم.

قال والدها محاولاً تهدئة نفسه:

– اسمعي يا (نوال) والكلام ده ها يبقى اخر حاجة في نقاشنا وعشان تصلحي الغلطة اللي وقعتي وعاوزة توقعينا فيها.. الولد ده تنسيه لمائي، وخطوبتك على (بيتر) هتكون الحد الجاي، وده آخر كلام عندي.

تحاول (نوال) قائلة:

– لكن يا بابا.

يعلو صوت والدها هاتفاً:

– مفيش لكن.. أنا قولت خطوبتك الحد الجاي، وده ممكن

ينسيني المصيبة اللي انتي عملتيها.

ينتهي النقاش ووالدها تصطحب زوجها إلى غرفته، تاركين (نوال) بدموع تترقرق في عينيها، تقترب منها أختها الصغيرة، تحيط كتفيها بذراعها وهي تقول لها بصوت خافت:

– ما تزعليش بس اللي بيقولوا بابا هوالصح واللي لازم يتم.

قالت (نوال) بصوت باك:

– بس أنا بحبه يا (لينا).

تربت (لينا) على كتفها وهي تقول:

– بس أكيد حبك لينا أكبر منه.

لم تستطع (نوال) المقاومة أكثر من ذلك، فنهضت لتذهب إلى غرفتها وتغلق الباب خلفها، مرتمية على سريرها مع دموعها التي انهمرت من عينيها..

تعلم أن أباها على حق وإنها يجب أن تنفذ كلامه، لكن قلبها كالعادة يخفق كلما زار (عمر) تفكيرها، ويجعلها أكثر عناداً وتمسكاً به..

ما ذنبها أن تقضي باقي عمرها مع شخص لا تحبه ولا تطيقه، هل هذه هي الحياة؟

إن الحياة ليست عادلة دوماً، وهي تعرف إنها إذا اختارت (عمر) فلن تكون حياتها جنة أيضاً، لكن الصعاب والمشاكل ستندحر

بالتأكيد أمام حيهما..

الاختيار لن يكون بهذه السهولة طالما إنها ستضع سعادتها وحبها مقابل أهلها، الذين ستخسرهم بالتأكيد إذا اختارت (عمر).

صراع قاسٍ دار في تلك .لدقائق بين قلبها وعقلها..

ترفع عينيها المملؤتين بالدموع إلى تمثال للمسيح معلق على أحد حوائط الغرفة، تنهض من على فراشها، تقترب من الصورة وتجثو على ركبتيها أمامه، تشبك كفيها أمام وجهها، تقول بصوت أخنقته العبرات:

– أبانا الذي في السماوات.. انت عارف إني معملتش حاجه غلط، أنا حبيت واحد حب شريف وكل اللي كنت عاوزاه إني أعيش معاه بقية عمري، لكن الناس كلها عاوزه تحرمني من ده.. أرجوك ساعدني.

تجلس قليلاً في خشوع صامتة تصغي لصوتها الداخلي، آملة أن ينقذها من ذلك الصراع الدائر..

لم يطل الأمر سوى لدقائق، قبل أن تمسح دموعها بكفيها، ثم تهض لتغادر غرفتها متجهة إلى غرفة والديها، تتابعها نظرات أختها الصغرى، تطرق باب غرفتهما وتنتظر لثوان، قبل أن تفتح والدتها الباب بنظرة متسائلة بعد أن وجدت (نوال) في مواجهتها تقف صلبة، برغم آثار البكاء على وجهها وهي تقول لها:

– بلغي بابا إني موافقة على خطوبتي من (بيتر).

لم تصدق أمها أذنيها، وإن ابنتها قد عادت إلى رشدها ووافقت بسرعة، فتهلل وجهها بالسرور وهي تمد ذراعيها، وتحتضنها قائلة:

– أنا كنت عارفة إنك عاقلة ومش ممكن تعملي فينا كده أبدًا.

تركت نفسها بين أحضان أمها، بينما سمع والدها بالداخل ما قالته، فأطلق تنهيدة ارتياح بعد انتهاء ذلك الكابوس..

أو أنه تصور ذلك..!

***

12

ظلام دامس أحاط به..

يشعر بكل ما حوله ويسمع تلك الأصوات التي تتكلم بجواره وتلك الحركة التي تدور حوله، لكنه لا يستطيع الرد عليها..

يحاول تحريك أطرافه لكنه لا يشعر بها إطلاقاً، قبل أن يسمع تلك الجملة:

– لقد مات كافرا والعياذ بالله.

تصدمه الجملة لثوانٍ قبل أن يدرك إنها كانت عليه..

إذن فهو ميت..!!

بالفعل هذا ما حدث له الآن..

تقترب منه الأيادي من الناس التي تلتف حوله، يحملونه على أكتافهم، يسيرون به وهو يحاول التكلم ليخبرهم أنه لم يمت وأنه

يشعر بهم لكن بلا جدوى..

يدخلونه في حفرة تسع جسده بالظبط، ينتابه الذعر بعدما أدرك أنهم يقومون بدفنه الآن، يريد أن يصرخ بعلو صوته، أن يحرك أي شبر في جسده، لكنهم يكملون عملهم ويغلقون عليه قبره..

يشعر بخوف لا مثيل له، يريد البكاء لكنه لا يستطيع، يريد فعل أي شيء لكن ما من إجابة، وعندما سمع ذلك الصوت تيقن إنها فقط البداية، وأن كل ما مر به لم يكن شيئاً في مقابل ما سيحدث بعد قليل..

– من ربك؟

يتردد ذلك الصوت الهادر في خلاياه، يزلزل أعماقه، يشل عقله من الرعب، يعود إليه تدريجياً إحساسه بأطرافه، يعرف الإجابة لكنه لا يقوى على النطق بها..

– من ربك؟

يستنفر كل قواه وإرادته ليستطيع الكلام، يشعر بثقل حديدي على لسانه، تخرج الكلمات من فيه متلعثمة لا تحمل معنى واضحاً..

– ما دينك؟

يشق الصوت طريقه عبر أوردته وشرايينه، تتجمد الدماء معها في عروقه، لسانه لازال مشلولاً وتخرج منه أصوات كشخص أبكم..

– من نبيك؟

يكاد يبكي من القهر لعدم استطاعته قول شيء، لسانه الذي أطاعه في الدنيا يتمرد عليه ويعصاه، يتمنى أن يجثو أمامه على ركبتيه ليجعله ينطق بضع كلمات، هي كل ما يريده منه الآن..

تنتهي الأسئلة لكن لم ينته الأمر بعد، يشعر بحركة على يساره، يستطيع تحريك رقبته بصعوبة ليرى ما يحدث، يزاح الظلام عن عينيه تدريجياً..

وليته لم يزاح..

يرى ذلك القدر العميق الذي تتصاعد منه الأبخرة، بينما على مقربة منه تشتعل نار عظيمة، نار ليست كأي نار رآها في حياته السابقة ترتفع إلى مدى بصره، تثير الرعب في كيانه كله، ترتجف لها كل خلية من خلاياه، يشعر بنفسه يستطيع الحركة رغم ضيق القبر، الذي يجده الآن أوسع قليلاً، ينهض من مكانه بصعوبة ليسمع ذلك الصوت الهادر مرة أخرى:

– اقترب يا (عماد) وتوضأ من هذا القدر.

يقترب بخطوات حثيثة من القبر، ساقاه كخيطين رفيعين يترنحان في مشيته، يرتفع ببصره ليرى ما في هذا القدر، قبل أن تتسع عيناه ذعراً، بعد أن وجد بداخله قطراناً أسوداً يغلي ويفور..

– توضأ من هذا القدر وصلى في هذا المكان.

يعرف ما يقصده بذلك المكان الذي تشتعل فيه النار، يدرك ما سيحدث له إذا وضع إصبعاً في ذلك القدر سيذوب خمسه بل

وستذوب عظامه أيضاً، يحاول استغلال قدرته الباقية على الحركة، يتراجع إلى الخلف محاولاً الركض، قبل أن تنشق الأرض عن تلك القبضة الحديدية كأقلام الرعب، يحاول الصراخ والإفلات منها، لكنها تطبق عليه بقوة، تحبس الهواء الصادر من صدره، يشعر بعظامه تنسحق، تجحظ عيناه من الألم، ترفعه تلك القبضة في الهواء عالياً، تستعد لقذفه في القدر، تقذفه قذفة قوية وتحرر صدره من الهواء، ليطلق تلك الصرخة العاتية التي اشتاق إليها طويلاً..

ينهض (عماد) من النوم مطلقاً تلك الصرخة، التي شعر بأن حلقه انقطع من شدة صوته، يلهث وهو يكاد لا يصدق ما كان يحدث له في الكابوس، وإنه قد أفاق فعلاً، يتلفت حوله ليتأكد أنه لا يحلم، يجد (مطرون) الذي ينظر إليه نظرة عجيبة عاقداً حاجبيه، لكنه لا ينبس ببنت شفة، يمسح (عماد) عرقاً غزيراً سال على وجهه ويغرق جسده كله..

لم يكن (عماد) من النوع الذي تنتابه الكوابيس إلا نادراً، ولكنه أدرك أن هذا ليس كابوساً، وإنما على الأرجح رؤية..

رؤية تحمل في طياتها رسالة واضحة له..

هذه ستكون نهاية الطريق الذي اختاره..

ينهض من على فراشه شاعراً بعطش شديد، يذهب ليروي ظمأه، بينما يراقبه (مطرون) بتلك النظرة، التي تجمع بين الفهم والريبة..

إنه مشغول حالياً في متابعة ما يفعله (هشام) عن طريق أتباعه

الذين يساعدونه، وينقلون إليه الأخبار أولاً بأول، لكن ما حدث أمامه لـ(عماد) أعاد إليه ذكريات سابقة عن أحد السحرة الذين خدمهم من قبل..

يحلم البشر دائماً بالكوابيس، لكن تلك الصرخة التي أطلقها (عماد) لم يسمعها (مطرون) إلا مرة واحدة من قبل في حياته، ويعرف ماذا تعني..

بالنسبة له فإن ذلك معناه أن على (هشام) الإسراع قليلاً فيما ينتويه، قبل أن يحدث ما يتوقعه، أو أنه من الممكن أيضاً أن يكون هذا في صالحه، وفي كلا الحالتين كلما انتهى أمر (هشام) سريعاً كلما كان أفضل..

يعود (عماد) إلى فراشه وقد هدأ نسبياً، محاولًا العودة إلى النوم، ينظر إليه (مطرون) وهو يهمس لنفسه:

– لم يتبق الكثير.

ولم يكن يدري كم كان محقاً..

***

كانت تلك الليلة نابغية بحق مقارنة بالليالي السابقة التي عاشتها (سامية)، وهي ترقد بجوار المعلم..

إن من تفكر وتخطط لقتل زوجها لن يكون من السهل عليها أن تنام هانئة البال، خاصة أن أقصى ما استطاعت قتله هو صرصور بعد معركة ليست بالسهلة، وبعد صيحات وصرخات عديدة، لكن الأمر

سيختلف حتماً هذه المرة..

تريد أن تتخلص من المعلم الذي لم يعاملها إلا بالحسنى منذ زواجهما، لكن الحسنى لا تستطيع للأسف أن تلبي كل رغباتها..

لذلك فبعد أن أعياها التفكير في طريقة سهلة تستطيع أن تجعله يُلقي بما ربه، وفي نفس الوقت لا تحوم الشكوك في سبب وفاته؛ لأنها لن تفعل هذا حتى تقضي باقي عمرها في السجن أو متدلية من حبل المشنقة، مُضت قبيل الفجر بقليل متجهة إلى دورة المياه، تغلق الباب خلفها بإحكام بالمفتاح، تفتح تلك الخزنة الصغيرة فوق حوض غسيل الوجه التي تحتوي على بعض أغراض الإسعافات والأدوية، تأخذ تلك العلبة الزرقاء المميزة، التي انتشرت كالنار في الهشيم في كثير من البيوت، محاولة إعادة إحياء أعضاء ماتت منذ فترة، ناشرة البهجة والسعادة مرة أخرى بين أي زوجين افتقدا لها، معيدة للرجل كبرياءه وللمرأة متعتها، لكن وظيفة الحبوب هذه المرة ستختلف..

تأخذ (سامية) عدداً كافياً من الحبيبات الزرقاء، تضعهم على قطعة ورقية صغيرة، تقوم بطحنهم باستخدام أحد الأدوات العديدة الموجودة داخل دورة المياه، تحاول منع تلك الارتجافة التي تسري في يدها، تزداد ضربات قلبها سرعة، يزداد ضخ الأدرينالين في جسدها، تنبت حبيبات العرق على جبينها، تلهث،ترتعش، تطحن، يخيل إليها أن أصوات سحق الحبيبات الخافتة يدوي كالطبول، ولن تلبث أن تجد المعلم واقفاً على الباب بنظرة متهمة..

تنتهي من عملها بعد دقائق مرت كساعات، تقوم بلف الورقة

جيداً وإطباق كفها عليها، تتأكد من إزالة أي آثار ولو ضئيلة من جراء طحن الحبيبات، تفتح الباب وتخرج من دورة المياه، تمر على المطبخ الذي لا يدخله المعلم إلا نادراً، تقوم بفتح أحد الدواليب ودس الورقة بين الآنية العديدة داخله، تأخذ أنفاساً عميقة للسيطرة على أعصابها، تعود مرة أخرى إلى الحجرة للنوم بجوار المعلم، الذي كان يغط في النوم غير عالم بما حوله، ترقد بعيدة عنه وهي تنظر إلى ظهره، تحاول الاقتراب منه لكنها لا تستطيع، صار كمنطقة محرمة غير مسموح لها باجتيازها أو الاقتراب منها، تحاول التركيز في أي شيء اخر فتتذكر (عمر)، والسعادة التي ستنالها بعد خلاصها من المعلم زواجها منه..

لكن هل ستنال السعادة فعلاً؟..

هل سيكون طريقها مفروش بالورود، وسيتحقق حلمها بالسعادة الأبدية من الشخص الذي طالما تمنت أن يكون بجوارها الآن؟..

هل سيحبها (عمر) من أعماق قلبه كما أحبته وستظل تحبه، وهل سيكون حبه خالصاً أم أنه فقط من جراء ما فعلته به عند (عماد)؟..

وماذا عن المعلم؟..

هل ستستطيع النوم ليلاً هانئة البال، أم إنها لن تتخلص منه وسيظهر لها في كوابيسها كما تشاهد في العديد من الأفلام؟..

إن هذه الأشياء تحدث فقط في الأفلام لكن الحقيقة إنها لم تسمع شيئاً من هذا يحدث في الواقع، فلتمض في طريقها أن كانت تريد

السعادة حقاً..

استقرت على هذا القرار، وإن ظلت مستيقظة حتى موعد استيقاظ المعلم، فاستيقظت معه بدورها، ألقى عليها تحية الصباح قبل أن ينهض ليدخل دورة المياه، فقامت لتعد له طعام الإفطار كالروتين اليومي المعتاد، تضع الطعام في الآنية وتقوم بتسخينه، تفتح الخزانة التي وضعت بها الورقة تقوم بسحبها، تتلفت خلفها على الرغم من تأكدها أنه لا يستطيع رؤيتها، تأخذ نفساً عميقاً وهي تفتحها، لتوزع جميع محتوياتها على طعام الإفطار، ثم تخلطه جيداً داخل الطعام حتى لا يكون واضحاً..

يخرج المعلم من دورة المياه، ليجد مائدة الإفطار معدة ككل يوم، يجلس أمامها على المائدة، يرمقها بعينيه وهو يقول:

– أخبارك إيه النهاردة يا (سامية) وأخبار اهلك؟

ترد عليه متشاغلة بالنظر إلى الطعام:

–الحمد لله كويسين وبيسلموا عليك.

ينشمر عن ساعديه ويبدأ في الالتهام، تحاول أن تتمالك أعصابها، وأن لا تفعل أي حركة مريبة تجعله يشك بها، يلاحظ عدم أكلها فيسألها بفم مليء بالطعام:

– مالك ما بتاكليش ليه؟

تحاول تصنع الألم قليلاً واضعة يدها على معدتها مجيبة:

– شوية مغص كده لما معدتي تروق هاكل.. كل انت بالهنا

والشفا.

– ألف سلامة عليكي..تحبي نروح للدكتور؟

–لا مش للدرجة دي هو هيروح لوحده.

– براحتك.

يكتفي بهذه الاجابة، يواصل الأكل بينما آثار تلك المكالمة التي تلقاها لا تزال تدور في ذهنه، يحاول طرد الأفكار السوداء من رأسه وهو يرمقها بين الحين والآخر، غير عالم بأن الحقيقة أكبر من كل ما يدور في ذهنه..

ينتهي أخيراً من الأكل في وقت قليل خيل لـ(سامية) أنها دهر كامل، تشعر بأن حياتها من بداية زواجها من المعلم تدور في ذهنها انتهاء باللحظة الحالية التي تقتل فيها زوجها، راودتها عدة مرات رغبة في أن تجعله يتوقف عن الأكل، لكن شيطانها داخلها كان أقوى منها، يمنيها بالسعادة والمتعة الأبدية مع (عمر)، يعمي بصرها ويبلد أحاسيسها يزين لها الأحلام، يجعلها تشاهد زوجها يمشي في طريق الهلاك ولا تهتز لها شعرة..

ينهض المعلم لارتداء ملابسه فتنهض لتساعده بدورها، ينتهي فيدور ليطبع قبلة على خدها وهو يقول لها:

– هابقى أكلمك واطمن عليكي عشان لو المغص ما راحش.

تحاول رسم ابتسامة خافتة على شفتيها وهي تقول:

– ما تقلقش عليا هبقى كويسة.

يغادر الشقة متجهاً إلى القهوة، فتهرع لتلتقط هاتفها متصلة بـ(عمر)، يرد عليها فتقول له بأنفاس لاهثة من فرط الانفعال:

– عاوزاك تنزل وتعدي عليا ضروري حالا دلوقتي.. مليش دعوة تتصرف أنا عاوزاك حالًا..يالا مستنياك.

تغلق الهاتف وتلقيه على المنضدة بجوار السرير، تشعر برعشة خفيفة تبدأ في جسدها، وبضربات قلبها تزداد سرعة، تمر ربع الساعة تقريباً وهي تجلس كالجالس على الجمر، حتى شعرت برنين جرس الباب، فنهضت مسرعة لتفتحه له، يدخل (عمر) ولم تختف آثار النوم كاملة من على وجهه، وهو يقول لها:

– صباح الخير يا (سامية)..ايه الل..

لم تدعه يكمل عبارته،وفوجئ بها تسحبه من ياقته لتقبله قبلة عنيفة، وهي تقول له بأنفاس لاهثة:

– مش قادره يا (عمر) أمسك اعصابي.. أنا عاوزاك حالًا.

يحاول أن يهدىء من حالتها، بينما هي تغمر وجهه ورقبته بقبلات محمومة، تحيط وجهها بكفيه، ويلمح في عينيها نظرة شهوة مسعورة ولدها الانفعال، وجسدها يرتجف شبقاً فيقول لها:

– مالك بس إيه اللي حصل؟

تطبع قبلة على عنقه وتقوم بعض أذنه عضة خفيفة قبل أن تهمس فيها بصوت مرتعش:

– خلاص المعلم كمان شوية..تعيش انت.

تصدمه العبارة رغم إنها كانت قد قالتها من قبل بأنها ستقوم بقتله، لكنه لم يكن يعلم إنها ستفعلها بهذه السرعة، يقف جامداً لثوان غير مستوعب للأمر تقريباً، فلاحظ هذا وسط انفعالها الذي جعلها في أعتى قمة شهواتها، تتوقف قليلاً عن تقبيله، تقول له ناظرة لعينيه السارحتين في جهات أخرى:

– مالك يا (عمر)؟.. مش هو ده اللي اتفقنا عليه، وخلاص هانتجوز ونبقى مع بعض على طول.

يقول لها ساهماً:

– الكلام حاجة والعمل بالكلام ده حاجة تانية.. ثم انتي ما قولتليش انك هاتعملي كدة بسرعة والنهاردة.

تتحسس وجهه بأناملها، تمر بشفتيها على شفتيه، تحتضنه من وسطه لتقربه منها أكثر، تقول له وشفتيها لا تزال تلمس شفتيه:

– أنا قولتلك أنفذ بسرعة قبل ما أغير رأيي أو انت تغيره، انت ماتعرفش أنا نفسي أبقى معاك بسرعة إزاي.

كانت الأفكار تدور في رأسه بسرعة البرق..

ما هذا الذي وصلت إليه يا (عمر)؟..

ما تلك الغشاوة التي هبطت على عينيك ومشاعرك وأفكارك، فجعلتك تواصل الطريق مع امرأة متزوجة كان الأمر معها في بدايته نزوة، لكن الأمر تطور لأن تغرس بذرتك داخلها، ولم تكتف بهذا بل صرت شريكاً لها في جريمة قتل، ثم تقوم بالزواج منها رسمياً..

أين ذهب عقلك وأين غابت أخلاقك وكيف نسيت (نوال)، التي برغم علاقتكما المعقدة التي تنذر بالفشل، إلا أنك لازلت متعلقاً بها..

لقد كنت في غيبوبة ولا بد أن تفيق منها الآن..

إذا لم تقم باتخاذ قرار سريع الآن، فلن تستطيع أن تنتشل قدماك من المستنقع الذي يبتلعك..

آن الأوان لوضع حد لما أنت فيه..

***

ألقت الشمس بأشعتها الذهبية على مياه نهر النيل، وبدا الجو منعشاً ورائعاً، لكن (وفاء) لم تشعر بهذا كله، وهي تجلس في ذلك المطعم الذي يطلع على ذلك المشهد، والذي أصرّ (بسيوني) أن يتقابلا به بعد أن كانت قد حددت له مكاناً آخراً، حتى يستطيعا الاتفاق على شروط الزواج..

كانت قد تركت (حسام) مع والدتها متعللة لها بالذهاب مع رفيقاتها إلى موعد عمل، ولم تستطع أن تأتي على ذكر حرف واحد مما هي مقبلة عليه لها، برغم أن والدتها كانت تلح عليها دائماً بعد وفاة زوجها بوقت قصير أن تتزوج، حتى تستطيع الاعتناء بـ(حسام)، وحتى لا تطالها الشائعات كعادة أي سيدة في مجتمعنا تحمل لقب مطلقة أو أرملة، الذي يعتبرها متهمة في جميع الأحوال حتى لو كانت قديسة، لكنها استطاعت كسب احترام الجميع بإخلاصها لزوجها الراحل والاعتناء بابنها، قبل أن يظهر (بسيوني) في حياتها مهدداً إياها

بفقدان هذا كله..

سترى ما ستصل إليه أولاً مع (بسيوني) قبل أن تفاتح أمها وأخيها بأي شيء، تنظر في ساعتها بضيق، قبل أن تلمحه قادماً من بعيد، يرتدي قميصاً وبنطالاً، تشعر بالغرابة قليلاً لرؤيته بهذا الزي، فعزته إلى إنها لم تشاهده قبلاً إلا بالزي الرسمي للشرطة، لكنه كان يحمل ذات اللزوجة والثقة بالنفس والشعور بالقوة، يقترب منها حتى يصل إلى طاولتها، تزين وجهه ابتسامة عريضة وهويقول لها:

– معلش اتأخرت عليكي..على ما غيرت اللبس بتاعي وجيت.

– مفيش مشكلة.

يجلس وينادي على النادل، وهو يقول لها:

– تحبي تتغدي ايه بقا؟

–أي حاجة.

– أنا بقا هاطلبلك أكلة سمك تاكلي صوابعك وراها.. الطلب بتاعي يا (محمود) واتوصى بالسلطات.

يجيبه النادل:

– اللي تؤمر بيه ياباشا.

ينصرف النادل، فيلتفت إليها (بسيوني) وهو يقول لها:

– أنا مش مصدق نفسي إني قاعد معاكي.

لم تكن حتى الآن تستسيغه، ولكنها حاولت مجاراته في الكلام

وهي تسأله:

– ليه يعني؟

يتنهد قائلاً:

– لإنك يا (وفاء) مش حاسة بقيمتك.. أنا شوفت ستات كتير وقليل، لكن ما شوفتش حد زيك، انتي زي الجوهرة اللي نورها بيغطي على كل حاجة، قدامك أي واحدة ست بتختفي وما بيقاش ليها وجود، أنا صحيح اللي شغال شغلانتي دي لازم يكونّ بعيد عن العواطف والكلام ده، لكن في نفس الوقت أنا بقدّر الجمال، وبعرف إزاي احافظ عليه وأصونه، عشان كدة عملت المستحيل لحد ما وصلتلك، وكنت مستعد أعمل أي حاجة في سبيل إني أقعد معاكي قعدة زي دي النهاردة.

– مش عارفه المفروض كلامك ده يبسطني ولا يزعلني.. يعني عشان توصلي تخطف ابني وكنت عاوز تلبسني قضية آداب!!

يضحك ضحكة قصيرة ويقول لها:

– أنا آسف إني عملت كده بس لازم تعذريني، أنا عملت كده عشان كان إعجابي بيكي مغمّي عينيا، ومش مخلّيني شايف غيرك قدامي، وعمومًا أنا هعوضك عن كل ده بعدين.

– مفيش حاجه تقدر تعوضني عن خوفي ولوعتي على ابني.

– الحمد لله ابنك في حضنك دلوقتي وكل حاجة تمام.

– طيب..نتكلم بقا في المفيد.

– ما تستني شوية لحد ما يجي الأكل.

– لا نبتدي أحسن دلوقتي وناكل بعدين.

قال لها راضخاً على غير عادته:

– ماشي يا ست الكل أ.ري.

تعتدل في جلستها قليلاً وتقول له:

– أول حاجة ابني (حسام) ها يفضل معايا وما يفارقنيش.

–مفيش أي مشكلة يا ست الكل يفضل معانا.

– بالنسبة للشبكة والمهر مش هنختلف كتير اللي تقدر عليه انا موافقة بيه.

– من الناحية دي اطمني انتي تقلك يساوي دهب، وهاجيبلك الشبكة اللي تعجبك وهكتبلك المهر اللي تطلبيه.

– تالت حاجه رده المهم أني مش عاوزه اتجوز واحد على ذمته اتنين.

ينعقد حاجبيه في دهشة وهويسألها:

– يعني إيه؟

تقول في تصميم:

– يعني اللي انت فهمته يا (بسيوني)..يا أنا يا مراتك.

يصمت مندهشاً ومصدوماً قليلاً من طلبها المفاجيء،فيبادره قائلة:

– صعب عليك للدرجة دي؟

يقول لها محاولاً التغلب على أثر كلماتها:

– الحقيقة إنتي فاجئتيني، بس إيه المشكلة لما تكون (سيحة) على ذمتي كمان، هي من ناحيتها مش هتقدر تفتح بقها، وانتي كمان مش هاخليكي محرومة من حاجة، يبقى ليه عاوزاني أطلقها.

هزت كتفيها قائلة له:

– لو انت معتبرني جوهرة فانا جوهرة ما بحبش يبقى ليا شريك، أنا وافقت إني اتجوزك غصب عني، وانت قبل ما أقول طلباتي قولتلي انا مستعد لتنفيذها كلها..هي دي طلباتي.

بدأ في الشعور بالضيق قليلاً، يصل النادل في تلك اللحظة ليضع أطباق السلطات، ينظر (بسيوني) إلى الأطباق وقد زالت شهيته قليلاً، ينصرف النادل فيقول لها:

– الموضوع مش بالسهولة دي يا (وفاء).

– خلاص فكّر براحتك وانا هكون مستنية جوابك، وأول ما هتوافق نتجوز على طول..هو ده آخر كلامي.

– يا ستي أنا هلغيهالك خالص من حياتك ومش هتحسي بيها نهائيا، بس إني اطلقها دي حاجة مش سهلة.

ترتسم على جانبي فمها ابتسامة ساخرة وهي تقول:

– يعني (بسيوني) باشا بجلالة قدره ها يغلب في حاجة زي دي؟

اشتم رائحة السخرية في كلماتها على غير عادتها، ولكنه تجاهله في أعماقه، وهويقول لها:

– لا طبعا..كل حاجة تهون عشان عيونك.

قالها وهو غير واثق تماماً مما يقوله، ووانته فكرة في أنه يستطيع إرغامها على الزواج منه في جميع الأحوال، لكنه لم يرد أن يتخذ قراراً متهوراً يجعله يفقد كل شيء خاصة أنه وصل لهذه المرحلة، التي تجلس فيها معه على النيل تشاركه وجبة الغداء، وتوافق على الزواج منه حتى لو كانت تضع شروطاً صعبة..

يعرف (سميحة) جيداً، ويعرف إنها ستثور لمعرفة أنه سيتزوج عليها أخرى، وربما ستطالبه هي أصلاً بالطلاق بعد معرفتها هذا، لكنه لم يكن يريد أن ينفصل عنها بهذه الطريقة..

ينظر إلى (وفاء) ويقارنها بـ(سميحة) في مخيلته، ليجد إنها تربح المنافسة بلا أي تفكير، ثم أن (بسيوني) كما قالت هي لن يستطيع أي شيء أن يوقفه عما يريده، ومنذ متى يستعصي شيء عليه؟..

لذلك وبعد برهة من التفكير وجد نفسه يبتسم لها، وهويقول:

– خلاص يا ست الكل..طلباتك أوامر.

لم تتوقع سرعة موافقته على هذا الأمر، لكنها لم تكترث له كثيراً، خاصة وهي عازمة النية على أمر ما منذ البداية..

لم تنته الأمور بعد..

***

13

لم يكن ذلك الكابوس أو تلك الرؤيا كما أطلق عليها (عماد) هي آخر شيء، بل كانت البداية لسيل منها بعد ذلك..

يتكرر الكابوس لكن بتفاصيل أخرى، يرى نفسه في أحدها على مكان مرتفع، بينما يجد شخصاً لا يتبين ملامحه في مكان بعيد منخفض عنه، يسمعه يهتف:

– اهرب من عندك.

يشعر بالحيرة والتوتر، يضع كفيه على جانبي فمه محاولاً سؤاله من ماذا وكيف يستطيع أن يهرب، لا يغادر صوته حلقه كالعادة، بينما يهتف صاحب الصوت كأنما سمع سؤاله:

– اترك الباطل واتبع الحق قبل فوات الأوان.

تبدأ الأرض في الزلزلة من تحت قدميه، يحاول الهرب لكنه يشعر بأثقال على قدميه فلا تتحركا، بينما يتابع الصوت من أسفل:

– ما أنت فيه هو الباطل والحق هو الله.

يخيل إليه أنه يميز صاحب ذلك الصوت رغم بعد المسافة، ثم يدرك أنه (هشام)، الذي عاد يقول له بينما يشعر بالأرض تميد من تحت قدميه:

– لن يفنى عنك أحد شيئاً.

تزداد الزلزلة ويشعر بالأرض تنشق وتبدأ في بلعه داخلها، تسحق عظامه وتطبق على صدره، قبل أن يصحو من نومه مطلقاً تلك الصرخة العالية..

ينهض من فراشه متجاهلاً (مطرون) عازماً على الخروج من داره، والذهاب إلى بقعة نائية يستطيع فيها التفكير بمفرده قليلاً..

تقوده قواه إلى بقعة بعيدة عن العمران، يستعيد هذه الأحلام، تعود إليه تلك الرجفة التي تصاحبه كلما تذكرها، ويعود إليه الخوف الذي فارقه منذ أن دخل بقدميه في ذلك الطريق الشيطاني، والذي باع فيه روحه للشيطان..

يصاحبه في خوفه حب العودة إلى ما كان عليه قبل أن يسلك هذا الطريق، الذي جعله صاحب قوة وسطوة وقدرات خاصة، واستطاع أن يفعل كل ما كان يشتهيه بدون أي خوف أو عقاب، ويتوق إلى أن يتوب..

لكنه يعرف القوانين الصارمة التي وقع عليها بدمه في حفل تعميده، وأنه لن يفض هذا العقد إلا بدمه وحياته، وهذا سيكون بعد

انتقام شنيع منه في البداية لأنه لم يحترم هذا العقد..

ولكن أي انتقام سيكون شنيعاً مقارنة بما حدث له في أحلامه، والتي كان يشعر إنها حقيقية تماماً، وإن هذا هو ما سينتظره في النهاية بعد موته..

يريد أن يتوب ويستعيد روحه التي لوثت، يريد أن يترك كل ما فعله من شرور وراء ظهره ويعود سجله نظيفاً كما ولد، يريد أن ينام فيصحو ليجد كل هذا هباء منثوراً ويعود إلى حياته الأولى، يريد أن يكفر بشياطينه ويعود تائباً إلى ربه الحق..

لا يعرف كيف استطاعت نفسه أن تتغير بالكامل بعد رؤيته لما رأى، وكيف سيستطيع أن يترك كل ما كان يصبو إليه من سيطرة وقوة طوال حياته، لكن هذا هو ما يشعر به الآن، وما سيعمل على تحقيقه مهما كان الثمن الذي يعرف أنه لن يكون رخيصاً..

يتذكر تحذيرات (هشام) في الحلم، ويتذكر أنه منذ بضع أيام لم يشاهده أو يعرف مكانه كأنما قد اختفى أو انشقت عنه الأرض وبلعته، ربما يعزي نسيانه إيّاه لما يحدث له جراء تلك الرؤى، أو أنه لم يكن بحاجة إليه في تلك الفترة..

المهم أنه الآن يريد أن يبدأ في تنفيذ ما عزم عليه، يريد أن يتوضأ وأن يصلي ركعتين لله، لا يجد مورداً للماء من حوله إلا التراب، يعرف أنه لا بد أن يغتسل بالكامل أولاً، لذلك قرر الذهاب أولاً إلى شقته مخاطراً بمعرفة (مطرون)، الذي سيكون هناك احتمالاً كبيراً أن يخرج بعدها من تحت سطوته، وهو المتلهف على فعل هذا والانتقام

ممن جعله خادماً له..

ينوي العودة إلى شقته لكنه يصطدم في الطريق بمجموعة من الإناث في تلك المنطقة النائية..

يقسم (عماد) أنه لم ير في حياته وزينتهن، وهو الذي جاب أماكن كثيرة بعد تعميده، وعاشر ما استطاع أن يعاشر من النساء، بل ويستطيع أن يعاشر من يريدها إذا رغب فيها، لكن تلك الإناث اللاتي تقفن أمامه بكامل زينتهن مختلفات تماماً عمن رآهن من قبل..

بالتأكيد مختلفات وإلا فكيف تبرز له تلك النسوة الخمس في وسط هذه البقعة الخالية، وفي هذه اللحظة بالذات إلا لوكن شيطانات؟..

يبدو أن هنالك أحد ما يقرأ أفكاره ويعرف ما ينتويه بخلاف شيطانيه، وينوي أن يجعله يعود عن الطريق الذي ينوي المضي به الآن، والدليل على هذا ما يفعلنه الآن، حيث يقتربن منه وإحداهن تقول له بصوت ناعم:

– إلى أين أنت ذاهب؟..ابق معنا قليلاً.

تضع إحداهن يدها على صدره، وتدور الثانية حوله، تزل الثالثة على ركبتيها أمامه، يدرك ما يحدث حوله وما ينتوين فعله، يحاول السيطرة على أعصابه ونفسه، وهو يقول لهن:

– ابعدوا عني وإلا هأذيكم.

تبدأن في التعري وإبراز مفاتنهن، والتي لو كان أحداً غيره في نفس

الموقف لفقد الوعي مما يراه، وتقول له إحداهن وهي تلثم جانبي عنقه:

– لن تستطيع الخلاص منا بهذه السهولة.

يعرف أنه لو قام بالرضوخ لهن فلن يستطيع التوبة والتخلص من كوابيسه التي تزوره، يحاول جاهداً صدهن وقد أحطن به، وبدأوا في نزع ملابسه عنه، وتحسس كل بقعة حساسة منه كأبرع العاهرات مثرين فيه كل المشاعر الدنيوية التي تقود أبناء آدم دائماً إلى الهلاك، يستجمع ما تبقى من إرادته، وهو يحاول أن يقرأ شيئاً مما يذكره من القرآن، يستطيع في النهاية أن يبدأ في قرائتها، بينما هو ممدّد على الأرض عارٍ تقريباً وهن بالكامل عرايا، يعبثن في كل شبر من جسده..

يشعر في البداية بثقل في لسانه، لكنه لم يلبث أن تحرر:

– الحمد لله رب العالمين..الرحمن الرحيم.

يلاحظ بداية التغير عليهن وعلى ملامحهن، لكنهن يحاولن تجاهله ومواصلة ما يفعلونه..

– مالك يوم الدين..إياك نعبد وإياك نستعين.

هنا وجد منهن من تركهن لتصم أذنيها عن سماعه، بينما تواصل الأخريات العبث بغرائزه وأحاسيسه..

– اهدنا الصراط المستقيم.

هنا بدأ يرى تغير ملامحهن بالكامل، لتعود إلى هيئتها الأصلية غير البشرية، وأخريات بدأن في الصراخ بصوت خافت في البداية لم يلبث

أن أخذ يتعالى..

– صراط الذين أنعمت عليهم.

لم يكن يعرف ما لهذه السورة من تأثير لكنه أدرك الآن إنما تعمل فعلاً، ويشاهده من خلال قِ مهن من عليه وبدايتهن في التلوي ألماً بمياقن وأشكالهن الحقيقية،والصراخ بصوتٍ عالٍ..

– غير المغضوب عليهم ولا الضالين..آمين.

وعند أخر السورة كن اختفين تماماً وتلاشين من أمامه، لينهض من نومته محاولاً ستر أعضاءه بملابسه التي خلعهن عنه، يبدأ في الشعور بشعور متناقض هو مزيج من القوة والضعف..

القوة لترك هذا الطريق المظلم، والضعف من نفسه الأمارة بالسوء التي تلح عليه أن يظل فيما هوفيه، القوة لمحاولة استعادة آدميته، والضعف مما سيفعله الشياطين لاستعادتها مرة أخرى..

يعود إلى شقته ويدخل إلى حجرته، ليجد (هشام) واقفاً بالداخل فتراجع مندهشاً..

لم يكن ما أثار دهشته هو وجود (هشام) بالداخل، لكن ما فعل هذا أنه وجده يتحدث مع (مطرون) بلغة يفهم منها القليل، ولم يكد يدخل عليهم حتى توقفا عن الحديث، ووجد نفسه يسأل (هشام) مندهشاً:

– إيه اللي بتعمله هنا يا (هشام)؟..وازاي بتتكلم معاه كده؟

لم يكد (هشام) يلتفت إليه حتى اتسعت عيناه في دهشة ممزوجة

بالرعب، وقد علم الإجابة مباشرة..

وليته لم يعلم..!

***

– إيه اللي انت بتقولوا ده؟

قذف (سامية) بهذه الجملة في توحش، لا تكاد تصدق أذنيها ما سمعته من (عمر)، الذي يكمل بمنتهى الثبات:

– زي ما قولتلك كده أنا مليش دعوة باللي انتي عملتيه ده، ولا هقبل إني أشارك في جريمة زي دي.

تطلق شهقة مستنكرة من حلقها، وتلوّح بذراعيها قائلة:

– نعم يا خويا.. بعد كل اللي عملته ده عشانك عاوز تسيبني بالسهولة دي، انت ناسي إن ابنك في بطني ولّا إيه؟

– أنا كنت في غيبوبة وفقت منها خلاص، واللي عملناه مع بعض ده كان غلطة كبيرة، واللي في بطنك ده جه بالغلط وتقدري تزليه قبل ما يفوت الأوان، وعمومًا أنا مش عاوز حاجة منك ومن القلوس اللي ها يسيبهالك المعلم.. حلال عليكي كلهم.

تجذبه من ذراعه وهي تقول من بين أسنانها:

– وانت فاكر اني لما أنزّل اللي في بطني هاينوبني كتير من الورث؟.. كله هيروح لولاده، وأنا مش هاخد غير الشقة دي لوفضلتلي، اسمع يا (عمر) قسمًا بالله لو ماعملت اللي اتفقنا عليه

لاهد الدنيا على راسك.

أزاح يدها من على ذراعه بقوة، ومال نحوها قائلاً:

– اعملي اللي تعمليه يا (سامية) بس أنا مش هتنازل عن قراري وده آخر كلام عندي

يتركها مبهوتة ويغادر الشقة بسرعة، تشتعل النيران في قلبها وكيانها، تكاد تفقد الوعي من فرط الانفعال، فهوي جالسة على أقرب كرسي لها بعد أن خذلتها قدماها، ولم تعد قادرة على الوقوف، لم تمض دقيقة وهي تحاول التفكير فيما ستفعله..

ما الذي حدث له وغيّر قراره بعد أن كان قد وافق على كل شيء؟..

هل عاد مرة أخرى إلى تلك الفتاة وسلبتها منه، وجعلته ينساها ويحطم كل أحلامها بالسعادة والهناء؟..

لكن لا لن يمضي الأمر بهذه السهولة، و..

قطع أفكارها صوت باب الشقة وهو يفتح ويدلف منه المعلم، لتتسع عيناها في دهشة، وتحاول السيطرة على أعصابها، وهي تقول له:

– خير يا معلم..إيه اللي رجّعك بسرعة كده؟

يغلق الباب خلفه، يتقدم منها وترى في عينيه نظرة عجيبة لم تعهدها منه من قبل، وهو يسألها بصوتٍ عالٍ قليلاً:

– كان بيعمل إيه هنا ده في غيابي؟

تضطرب أعماقها وتتظاهر بعدم الفهم وهي تقول:

– هوايه ده يا معلم؟

يستند على عصاه ليصل إليها بخطوات سريعة أدهشتها، بعدها شعرت بالخوف وهو يمسكها من ذراعها بقبضة قوية،قائلاً لها:

– (عمر) اللي لسة طالع من باب الشقة عندك.

تبهت وهي تنظر في عينيه بنظرتها النارية، تتلعثم في الرد عليه قبل أن تقول:

– محدش خرج من الشقة غيرك ولا دخلها غيي..

بتر عبارتها بصفعة على وجهها، وهو يقول بصوت هادر:

– اسكتي يا خاينة، وانا اللي كنت مكذّب نفسي ووداني وأقول لا مش ممكن تعملي كده، لحد ما شوفته بعينيا وهو خارج من عندك.

تأوهت وهي تتحسس وجهها وتقول:

– كده تضربني؟

يمسكها من كلتا ذراعيها مقربًا وجهها منه ليواجها، لينظر في عينيها ويرى خيانتها مفضوحة فيهما، وهو يقول لها:

-- أضربك بس ده انا هاقتلك واشرب من دمك.

لم يكد يتمها حتى شعر بألم خفيف في قلبه، لاحظته هي فقالت محاولة تخليص نفسها من ذراعيه:

– للأسف مش هتعيش عشان تقدر تعمل كده.

تجحظ عيناه ذهولاً وغضباً في آن واحد، يشعر بالألم يزداد في قلبه، يقلتها ليهوي على أحد الكراسي، بينما تواتيها الجرأة لمعرفة بداية تأثير الحبوب عليه، وتقول له:

– أيوه انت خلاص هتموت بسبب الحبوب اللي حطتهالك في الفطار النهاردة.. الحبوب اللي مخلتكش قادر تديني حقي على السرير، دلوقتي هتديني حقي وزيادة بعد ما تموت.

يشعر فعلاً ببداية ضعف ينتابه وبضربات قلبه تزداد، يشعر بالخيانة والانخداع وبالغضب والثورة، تبث فيه الطاقة والقوة، يستعيد ما تبقى له من قوته وفتوته السابقة، فوجئت به يستند على عصاه الغليظة، وينهض في عينيه نظرة مليئة بالألم والغضب، يتقدم نحوها قائلاً:

– مدام هموت يبقى أغسل شرفي بإيدي قبلها.

تحاول الفرار من أمامه متجاوزة ذهولها، لكن نبوته الذي طالما وقف معاه في شبابه قبل هرمه يطيعه للمرة الأخيرة، يهوي به على رأسها، تحاول أن تتفاداه لكنه يهوى على كتفها، تشعر بألم هائل وبصوت تحطم عظامه، تطلق صرخة قوية وهي قوى على ركبتيها، ترفع بصرها لتجد المعلم يستجمع آخر قوة ونفس له ليرفع عصاه مرة أخرى، تُدرك أنها لو هوت على رأسها فسوف يكون هذا آخر شيء تراه في حياتها..ستنتهي حياتها بدون أي مال أو زواج ممن تحب أوانجاب طفلها منه، أو تحقيق لأحلامها المستقبلية، ستنتهي بعدما

فعلت كل ما فعلته وقتلت فعلياً زوجها، الذي سيلحق بها عاجلاً أو آجلاً..حاولت أن تتفادى الضربة مرة أخرى، لكنها هوت هذه المرة على رأسها..

وأظلمت الدنيا من حولها..

***

لقد طلّقها..

لم يكفه علمها بخيانته لها في كثير من الأوقات، ولكنها كانت تغض الطرف عنها لعلمها إنها مجرد نزوات، وسيعود لها عاجلاً أو آجلاً..

لم يكفه الصراعات التي كانت تحدث بينهما، والصفعات والركلات واللكمات التي تلقتها، وإحداث بها علامات في كل جزء من جسدها..

لم يكفه أنه لم ينجب منها حتى الآن، ولم يكلف نفسه لأخذها إلى أي مستشفى لمعرفة عدم حدوث هذا الأمر، والعمل على حله لإنجاب أطفال طالما حلمت بهم..

لقد طلقها..!

طلقها ليتزوج من أخرى راميًا إياها بمنتهى القسوة والبرود، لتحمل لقب مطلقة إلى الأبد، حتى ولواستطاعت الزواج مرة أخرى..

طلقها رغم صبرها على حياتها، لأملها أن حاله قد ينصلح، وأنه لن يجد غيرها صابرة معه واقفة إلى جواره..

طلقها ليدمي قلبها ويجرح كبرياءها ويحولها إلى حطام..

تحاول أن تتجاوز صدمتها وتتعلم باقي كبريائها، لكنها تعرف أن الأمر لن يكون بهذه البساطة، وتسيطر عليها فكرة واحدة لتعيد هذا الكبرياء مرة أخرى..

لن تتركه يتزوج تلك المرأة الأخرى مهما كلفها الأمر..

هذا ما عزمت عليه (سميحة) بعد أن ألقى (بسيوني) تلك الكلمة في وجهها بمنتهى اللامبالاة، وكأن ضميره مستريح لما يفعله..

لم تكن (سميحة) تعلم أن نفس هذا القرار كان يدور في ذهن (وفاء) بدورها، بعد أن علمت أن (بسيوني) قد قام بتطليق (سميحة)، ونفذ لها كل طلباتها حتى يتزوج منها..

كيف ستعيش مع إنسان بغيض لا تطيقه ولا تطيق أنفاسه، وكيف سيستطيع ابنها تقبل فكرة وجود رجل آخر محل أبيه في حياتهما؟..

لذلك فقد قررت أن تجاري (بسيوني) في الأمر، حتى تستطيع أن تجد طريقة للخلاص منه، والظفر بحياتها هي وابنها مرة أخرى، ولن تجعله يلمس شعرة في جسدها حتى لو اضطرت لقتل نفسها..

أما (بسيوني) فبعد تطليقه لـ(سميحة)، فقد اتصل بـ(وفاء) ليبلغها هذا النبأ، وقام بتحديد موعد للبدء في إجراءات الزواج، والتي طلبت أن تكون في أضيق الحدود، ولم يجد مانعاً لهذا المهم أن يتزوجها، ويجمعه بها سرير واحد..

كان قد أعدّ كل شيء، حيث يملك شقة أخرى قام بتجهيزها

بالكامل، وترك الشقة الأولى لـ(سميحة)، وإن كان عليه الآن الذهاب إلى هناك لأخذ باقي ملابسه وأغراضه..

دخل إلى الشقة، متوقعاً أن لا يجدها وتكون قد ذهبت إلى بيت أهلها، لكنه لم يكد يدخل غرفة النوم حتى وجدها جالسة على الفراش، تبدو متماسكة كثيراً عن أمس، قال لها وهو يتجه لدولاب ملابسه متحاشياً النظر إليها:

– كنت فاكر إنك عند أهلك،عمومًا أنا جاي آخد هدومي بس..الشقة دي بتاعتك.

قالت له بصوت خافت:

– كتر خيرك.

بدأ في فتح حقيبة كبيرة ليضع فيها ملابسه، فمضت ببطء من على السرير، شعر بها تقترب منه، قالت له:

– يعني هَون عليك العشرة يا (بسيوني)، تطلقني بعد كل ده.

أدرك إنها تستعمل معه اللين في تلك اللحظة، وسنمت أعماقه مما تفعله، وظهر هذا على وجهه وهو يكمل نقل ملابسه، قائلاً لها:

–أنا مش عاوز أتكلم في الموضوع ده دلوقتي يا (سميحة).

كانت تتوقع منه رد الفعل هذا إلى حد ما، وشعرت بمدى ضآلتها ورخص ثمنها مع هذه المحاولة البائسة، وعزز هذا ما تنوي فعله، لذلك فقد فوجيء (بسيوني) بها تسحب مسدسه من وسطه بحركة سريعة، تجمّد لثانية من أثر المباغتة، وبعدها وجدها تصوبه إليه مباشرة، ونظرة

شرسة أحلت مكان النظرة المستكينة التي كانت على وجهها منذ قليل، وهي تقول له:

– وأنا كمان خلاص مش عاوزه أتكلم في أي موضوع.. المسدس ده هواللي هيتكلم يا (بسيوني).

ترك ما في يده ببطء، وهو يعرف أن أي حركة مفاجئة قد تكون نهايته، خاصة وإنها كانت في قمة انفعالها وغضبها، إصبعها يرتعش على الزناد مما دله على إنها مترددة قليلاً، لذلك فقد واجهها وهو يحاول التحرك نحوها ببطء، ويقول لها بنبرة هادئة محاولاً تهدئتها:

– اهدي يا (سميحة) وارمي الطبنجة من إيدك..بلاش جنان.

ازدادت قبضتها تشبثاً بالمسدس، وهي تهتف به:

– الجنان ده انت اللي عملته مش انا..ارجع مكانك.

تجاهل تهديدها بالتراجع، حاول فعل ما تعلمه عند تهديده بالسلاح من قبل أي شخص آخر، رفع يده لتهدئتها واقترب منها حثيثاً،قائلاً:

– كل حاجة ممكن تتحل بس خلي السلاح على جنب.. ثم انتي مش مشغلة زرار الأمان.

انعقد حاجبيها وهي تلقي نظرة سريعة على إبرة الأمان في المسدس، وكانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها (بسيوني) لينقض عليها بسرعة، محاولاً إبعاد فوهة المسدس عنه، فضغطت الزناد تلقائياً لتنطلق الرصاصة..

شعر (بسيوني) بعمود من النار يخترق معدته، فنظر مذهولاً إليها

ليجدها تترنح دماً، ثم رفع بصره إلى (سميحة) التي كانت يدها ترتجف، وهي لاتزال متشبثة بالمسدس الذي يخرج الدخان من فوهته، ويقول لها بصوت مبحوح:

– ضربتي عليا نار يا (سميحة).

لم يكد ينطقها حتى ضغطت (سميحة) الزناد مرة أخرى، لتستقر الطلقة الثانية في معدته أيضاً، ولم تعد ساقاه تقويان على حمله، فسقط على ركبتيه والدماء تسيل غزيرة من جراحه، وهي تقول له بصوت عالٍ مرتجف:

– بعد كل ستين القرف اللي عشتها معاك تيجي بمنتهى السهولة كده وتطلقني.

ما عاد يقوى على الرد عليها، شاعراً بآلام رهيبة وبدوار يكتنف رأسه، يحاول ألا يهوى أرضاً، بينما ألقت هي المسدس على السرير، وشعر بها تغادر الغرفة، غابت لثوانٍ ثم عادت إليه مرة أخرى..

– مش كفايه حارمني من الضنا اللي نفسي فيه، وماحاولتش تتعب نفسك عشان نجيبه، لا وفي الآخر تطلقني.

شعر بها تفتح شيئاً ما، قبل أن تصب سائلاً على رأسه وجسده، اشتم رائحته النفاذة واجحظت عيناه ذعراً عندما عرف ماهيته، محاولاً استعادة ما تبقى له من وعيه مقاوماً ذلك الدوار والظلام الذي بدأ يحيط به..

– زي ما حرقت قلبي يا (بسيوني) أنا لازم احرقهولك.

حاول تحريك ذراعيه لمنعها عما تنتويه، لكنه سمع ذلك الصوت المميز لاشتعال عود الثقاب، قبل أن تلقيه عليه..

اشتعلت النيران في جسده كله ، حاول الصراخ عالياً لكن صوته خرج من حلقه كحشرجة بائسة، شاهدها من وسط النيران وهي تقف أمامه لا تتحرك، ناظرة إليه بعينين جامدتين..

شعر بالنيران تحرق كل خلية فيه، يده التي بطشت، وقدمه التي ساقته للخطايا، تحرق قلبه القاسي الغليظ وزيه العسكري، تحرق أحلامه التي كان يُمنّي نفسه بها مع (وفاء)، تحرق قوته ونفوذه وتكبّره وتجبّره، تحرقه نار الدنيا التي ستقوده إلى نار الآخرة الحقيقية..

تحرق شيئاً ما كان يدعى (بسيوني)..

***

14

حاول (عمر) التركيز في تلك السيارة التي يقوم بتصليحها في ورشته، لاحظ عليه الصبي (فؤاد) ما يعتريه من شرود، وهو يقوم بمناولته أحد الأدوات فلا يمد يده إليه ليأخذها،فيسأله:

– مالك يا أسطى.. شكلك مهموم ومتضايق النهاردة.

رد عليه (عمر) وهولا يزال ساهماً:

– مفيش حاجة يا فؤش.

حاول (عمر) إيجاد حل لمشكلته الجديدة مع (سامية) ومع ما فعلته والجنين الذي برحمها، تراوده فكرة في العودة إليها لإصلاح ما حدث بهدوء، لكنه كان يعلم أنها لن ترضى سوى بالزواج منه، ولن تتخلص من جنينه مهما حدث..

ستكون الصدمة قاسية على أمه إذا علمت، وسيشعر بضآلة أكبر لنفسه من الضآلة التي يشعر بها حالياً، بعد أن انساق لهذا الطريق..

لماذا لم تأت منذ البداية يا (نوال)؟..

لماذا لم تعترضي طريقي قبل السقوط في الهاوية؟..

لم يكد يأتي على ذكرها، حتى وجدها تقترب من بعيد، فترك ما في يده، تشيعه نظرة ماكرة من (فؤاد)، الذي قال له بلهجة متفهمة:

– آه..كده الهم هنا يروح أن شاء الله.

– بس يلا.

مسح يديه الملوثتين في قطعة قماش قماش قديمة، رآها تقترب منه بخطى سريعة، فاقترب منها بدوره مبتعداً قليلاً عن الورشة، ذهبا تلقائياً إلى ذلك الزقاق الضيق خلف الورشة، وقفت أمامه متحاشية النظر إلى عينيه مباشرة وهي تقول له:

– إزيك يا (عمر).. أنا جيتلك بنفسي عشان دي ها يبقى آخر كلام ما بيننا.

انقبض قلبه وخيل إليه أنه فهم ما يحدث،لكنه قال لها:

– مالك يا (نوال)..وليه ده آخر كلام؟

حاولت التظاهر بالثبات وهي تنظر إلى الأرض، قائلة بصوت ثابت:

– أنا خلاص وافقت على خطوبتي من (بيتر).

انقبض قلبه لسماعه هذا، زاد من همومه وضيقه، تمنى عليه كدلو ماء بارد، انحبست أنفاسه وشل تفكيره،بينما تواصل هي:

– وانا عشان كده جايه أقولك إن علاقتنا خلاص انتهت، ودي

آخر مره هتشوفني فيها.

تنهي عبارتها وتحاول الانصراف، لكنه يمسك ذراعها مسكة خفيفة، لم تستنكر ولم تبدي أي ردة فعل، قال لها بصوت متهدج:

– (نوال)..أنا محتاجك دلوقتي أكتر من أي وقت تاني.

استمر ثباتها وإن بدأت أنفاسها تعلو قليلاً، وهويكمل:

– انتي الحاجه الوحيده النقية اللي موجودة في حياتي، أنا عملت ذنوب كتير وارتكبت خطايا أكبر وأغضبت ربنا، وانتي اللي لسه بتحسسيني إني نضيف، أرجوكي ما تسيبنيش دلوقتي.

تقول له بصوت مختنق:

– وانت كمان يا (عمر) أول حاجة حبتها بجد، لكن..

قاطعها وهو يمسك ذقنها بأطراف أنامله ليرفع وجهها إليه، ناظرًا إلى عينيها اللتين بدأتا تترقرقان بالدموع، شعر بقلبه ينفطر، وهو يقول لها:

– مهما حصل هتفضلي انتي حبي الوحيد، أنا عمري ما حبيت ولا هحب غيرك.

بدأت الدموع في النزول من عينيها، مسحها بأنامله في رقة، مقاومًا رغبة عارمة في أن يحتضنها ويضمها لصدره، ضغط عليها حتى تذوب في خلاياه وتمتزج به، حتى لا يستطيع أي شيء في الكون أن يفرقهما، تتنفس مع أنفاسه ويخفق قلبهما سوياً، تجري في دمه وتسري في أعصابه..

تشعر بدورها بهذا الإحساس، وتتمنى أن يأخذها ويحلق بها عالياً بعيداً عن العالم بأسره، بعيداً عن مشاكله وهمومه وأوجاعه، تنظر إليه متمنية أن يفهمها، يلتقط الإشارة بدوره ويبدأ في سحبها إليه بعيداً عن أعين الناس، قبل أن يسمعا ذلك الصوت الهادر:

– كنت متأكد انك ها تروحيلوا بردو.

ينتفض الاثنان لسماعهما صوت (بيتر)، الذي وجداه واقفاً على مدخل ذلك الزقاق الضيق، تلتمع عيناه من الغضب ويرتجف جسده الضخم من الانفعال، يقترب منهما وهويقول لها:

– المره دي الموضوع مش هيعدي بالساهل.

يتقدم منهما وهما لا يزالان مسمرين، ممسكًا ذراعها بيده محاولًا جذبها، لكن (عمر) يمسك ذراعه بقبضته قائلاً له في صرامة:

– سيبها وما تمدش ايدك عليها.

تشتعل نيران الغضب في نفس (بيتر)، ينظر إليه غير مصدق، ثم ينظر إلى (نوال) التي لم يزل أثر الدموع من عينيها،قائلًا له:

– دي في حكم خطيبتي وهمد ايدي عليها زي منا عاوز، انما انت ايدك دي أنا هقطعهالك.

أخرج سكيناً من تحت ملابسه، فكتمت (نوال) صرخة كادت أن تنطلق من بين شفتيها، عندما رأته يحاول أن يهوى به على (عمر)، الذي تفاداه بحركة سريعة، وأمسك معصم (بيتر) الذي يحمل السكين..

تهتف (نوال) بذعر وهي تشاهد الصراع الدائر بينهما:

– بس كفايه هاتموتوا بعض.

كانت الدماء تغلي في عروق (بيتر)، والغضب يعمي عينيه، و(عمر) يكيل له لكمة في فكه، فتراجع قليلاً وقد شعر بطعم الدماء فيها، ثم تفادى ركلة كان يوجهها (عمر) إلى يده الحاملة للسكين، وعاد ينقض عليه مرة أخرى وهو يهتف بجنون:

– هقتلك.

حاول (عمر) مواجهته لكن السكين هوى على جانب ذراعه فسالت الدماء منه، كتم ألمه، بينما بدأت (نوال) في الصراخ عند مشاهدتها لدمه، أما (بيتر) فلم يكن يرى أمامه غير هدف واحد وهو قتل (عمر).

اندفع بجثته الضخمة نحوه مستغلاً إصابة ذراعه، رأت (نوال) في عينيه نظرة مجنونة، رفع يده بالسكين مرة أخيرة ليهوي بها على (عمر) انطلقت صرخة (نوال) التي اعترضت طريق السكين، وانغرز في قلبها، لم يصدق (بيتر) ما جنته يداه، وهو يحدق في (نوال) التي جحظت عيناها ألمًا، والدماء تسيل من صدرها..

هوت ساقطة بين ذراعي (عمر)، الذي وقف مبهوتاً لا يقوى على استيعاب ما حدث، اختلطت دماء ذراعه بدماء صدرها، سقط على ركبتيه محتضناً إياها، وهي تقول له بصوتٍ واهن:

– كويس إني دخلت حضنك قبل ما أموت.

تراجع (بيتر) غير مصدق أنه قتل ابنة عمه والإنسانة التي أحبها من قلبه، بدأ الناس في الشارع في التوافد إلى المكان بعد سماع الصرخات، أمسك بعضهم بـ(بيتر) بعد أن قرأوا المشهد بسرعة. و(عمر) يهتف بهم:

– حد يطلب الإسعاف بسرعة.

تمزّق قلبه وطار صوابه واحترقت روحه،آملاً في أن يستطيع إنقاذها، لكن تلك النظرة التي على وجهها خيبت ظنونه، نظرة من يفارق هذا العالم إلى مكان آخر، يقول لها بصوت باك:

– متسيبنيش يا (نوال).

تحاول أن تهمس له من بين شفتيها بشيء ما، لكنها لم تستطع، نظرت إليه نظرة أخيرة لن ينساها ما حيا، قبل أن يخبو نور عينيها..

يهزها غير مصدق أنها رحلت عن عالمنا،قبل أن يطلق صرخة ملتاعة..

ولكن ما من مجيب..

***

كانت التضحية في الواقع لا تتضمن فقط أن يقوم (هشام) بقتل شخص آخر كما فهم من (مطرون)، لكنها كانت تتطلب أن يضحي هو أيضاً بجسده، ليتلبسه (ساروخ) شخصياً، إذا وافق على أن يقوم بتخليص (مطرون) من قيوده..

تلك التعاويذ المكتوبة على الجلد البشري والتي لم يكن يعرف

معناها، وألقاها في ذلك الكهف وقت أن كان عارياً، كانت تدعو وتطلب وتتوسل إلى (ساروخ) أن يقوم بدخول جسده، حتى يذهب بهذه الهيئة البشرية إلى (مطرون) الذي يستغيث به عن طريق (هشام)..

(هشام) الذي فوجيء بصوت (ساروخ) يتردد في جنبات الكهف، مثيراً فيه رعباً بلا حدود:

– استعد أيها البشري فسوف تنال الشرف لأن يسكن (ساروخ) بنفسه جسدك.

اتسعت عينا (هشام) ذعراً، بعد أن أدرك ما فعله به (مطرون)، ألقى الورقة من يده، محاولًا التراجع بقدمين مرتعشتين، لكن بعد فوات الأوان، حيث تسمر دفعة واحدة، عندما شعر بوخزة قوية في مؤخرة عنقه،وبكيانه كله يرتجف،يشعر بجسده يرتفع قليلاً عن الأرض،يزداد اتساع عينيه مع نظرة ألم رهيبة،يطلق صرخة قوية كتمها طويلاً ترددت في أنحاء الكهف قبل أن يحيط الظلام بعقله،ويهوى على الأرض..

بعدها بدقيقة استفاق، فاتحًا عينيه، غارقاً في العرق لا يعي ما حدث له، نُهض من على الأرض،غادر الكهف كالتائه، لا يكترث لذلك الكلب الأسود الذي كان يقف على مدخل الكهف، واصل طريقه عائداً من حيث جاء..

عندما دخل (عماد) إلى شقته في ذلك اليوم، وجد جسد (هشام) واقفاً أمام (مطرون)، لكنه عندما التفت إليه وشاهد تلك النظرة

الشيطانية التي أطلت من عينين حمراوين بلون الدم، أدرك أن ذلك الشخص ليس (هشام)، وأن الأخير صار فقط كوعاء يستخدمه من بداخله، والذي لم يكن يعرف أنه (ساروخ) الابن الأكبر لإبليس، ولكنه كان متيقناً أنه ليس جنياً عادياً، بدليل تلك القيود التي بدأت تزال أمام عينيه المذهولتين من على (مطرون)، الذي كان يشعر بإحساس ظافر لا مثيل له، بعد كل تلك السنوات التي قضاها ذليلاً مقيداً بها، ووجد (عماد) نفسه يتراجع قليلاً وهويسأل بصوت مرتبك:

– إيه اللي بيحصل؟

أجابه (مطرون) بنشوة وسعادة طاغية:

– الذي يحدث الآن أني لن أصير عبداً لك أو لأحد بعد الآن، بل أنت الذي ستكون عبدي.

أيده (هشام) بهزة موافقة من رأسه، راسمًا ابتسامة جانبية على فمه، وهويقول بصوت مغاير تماماً لصوته:

– هذا صحيح..ولازلت أنا (ساروخ) الأكبر والأفضل.

كان (عماد) في هذه اللحظة يشعر بذعر هائل، لكنه تذكر أنه كان عائداً تائباً إلى الله، يحاول النجاة مما سيحدث له، يرفع يديه إلى السماء،متجاهلاً وجود اثنين من أقوى الشياطين بجواره، يقول بصوت متضرع:

– انا رجعتلك تائب ونيتي صادقة..أرجوك سامحني على كل اللي

عملته واغفر لي، فإنك انت الغفور الرحيم.

يتخلص (مطرون) من قيوده تماماً، يطلق صيحة ظافرة قوية وهو يرفع قبضتيه إلى وجهه، ثم ينحني ويسجد أمام (هشام)، قائلاً بصوت منفعل من فرط السعادة:

– الحمد والشكر لك يا سيدي..الحمد والشكر لك.

لا يتحرك (هشام) قيد أنملة، بينما ينهض (مطرون) ناظراً لـ(عماد)، الذي كان رفع يديه للسماء، يتضرع إلى الله بصوت باكٍ، قائلًا له:

– لقد علمت هذا منذ اللحظة الأولى.. لكن فات الأوان أيها البشري، لسوف أذيقك العذاب ألواناً قبل أن أقتلك.

شعر (عماد) بقوة هائلة ترفعه عن الأرض، تثبته بقوة إلى أحد حوائط الشقة، تسمره فيه بوضع أشبه بالمصلوب، لكنه رفع بصره إلى أعلى مردداً:

– اللهم إني تبت إليك توبة نصوحة..اللهم اغفر لي.

أغلق عينيه وهو لا يزال يردد الأدعية مستسلماً لما سيحدث له، اقترب منه (مطرون) عازماً على انتزاع أطرافه، لكنه تراجع في دهشة عندما وجد أنه لا يستطيع المساس به، كأن هناك حائطاً خفياً بينه وبين (عماد)، حاول مرة أخرى لكنه اصطدم مرة أخرى بالحائط الخفي، نظر إلى (هشام) سائلاً إياه:

– ما هذا الذي يحدث؟

يجيبه صوت (ساروخ) الصادر من حلق (هشام)، وهوينظر حوله:

– لقد قمت بتخليصك من قيودك، أما الآن فلا شأن لي بك، وعليّ الانصراف حالاً.

يبادره (مطرون) قائلاً:

– ليس الآن يا سيدي لازالت هناك تلك التعاويذ على جدران الحجرة، لن أستطيع الخروج من هنا.

لا يعرف (مطرون) ما حدث تحديداً، وإن كان قرار (ساروخ) بالانصراف وتركه قبل إنهاء فك التعاويذ داخل الحجرة، يشير إلى أن هناك قوى أخرى تحيط بالمكان..

رأى (مطرون) الألم ينبعث من جسد (هشام)، الذي تفارق عينيه تلك النظرة الشيطانية، تلوى بقوة ويطلق صرخات قوية كأنما تُنتزع روحه، التفت إلى (عماد) الذي لازال مسمراً في الحائط لكنه لا يستطيع الاقتراب منه..

وفي تلك اللحظة، كان (عماد) وسط صرخات (هشام) ومحاولات (مطرون) المستمرة للوصول إليه، يتلو التعاويذ الخاصة بإحراق (مطرون).. يراها أمام عينيه رؤيا العين رغم أنها ليست بالسهلة، لا يعرف كيف يحدث هذا لكنه الآن يتلوها بصوت عالٍ وثابت، رأى (مطرون) وهو يحاول الفرار بعد أن فشل في الوصول إليه ليسكته، لكنه اصطدم كالعادة بذلك الحائط غير المرئي، حاول مغادرة الحجرة، لكنه لم يستطع بسبب تلك الكتابات على جدرانها،

جن جنونه وزمجر هاتفًا باسم (ساروخ)، الذي كان قد غادر جسد (هشام) تقريباً، وقد أدرك أن هنالك بالفعل قوى عليا لا قبل له بها تقف بجوار (عماد) في تلك اللحظة..

شعر (مطرون) بجسده يحترق، رأى (هشام) وقد سقط غائباً عن الوعي في الأرض، عالماً أن (ساروخ) قد غادر جسده وتركه لسبب مجهول، حاول إخراس (عماد) الذي يعلو صوته المرتجف بتعاويذ تزلزل كيانه وتشعله حرفياً، يطلق صرخة قوية:

– إنني أحترق.

في تلك اللحظة في ذلك الحي الشعبي، سمع الجميع تلك الصرخة الهادرة القوية التي لا تمت للبشر بصلة والتي زلزلت الحي بأكمله، الصادرة من شقة (عماد)، تصاعدت نيران قوية بغتة في الشقة كلها، التهمت كل ما فيها بسرعة، قبل أن يستطيع أحد من الناس الذين التفوا حول المكان يراقبون ما يحدث القيام بإخمادها أوفعل أي شيء..

راقبت (وفاء) خيط الدخان من شرفة شقتها، وهي تحتضن ابنها (حسام) بقوة،آملة في غدٍ أفضل..

رآه المعلم (جودة الدكش) وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على عتبة البناية، بعد أن قضى على (سامية)، وزحف من الشقة، محاولاً أن ينقذه أحد من المارة كما أنقذ الكثيرين من قبل في شبابه..

رأته (سميحة) مختلطاً برائحة شواء جسد (بسيوني) بعد تفحمه وحرق قلبه كما أحرق قلبها وقلوب الكثيرين من قبل..

رآه (عمر) وهو يحتضن (نوال) التي اختلط دمه بدمها منتصرًا

على كل القوانين الدنيوية التي فرقت بينهما، وهي تلفظ أنفاسها بين ذراعيه..

رآه الناس وهويرتفع إلى السماء تاركاً إياهم في حيرة..

***

لاشك أن (عماد) يملك قلبا من حديد..

وإلا فكيف يستطيع شخص عاقل ومحتفظا بكامل أعصابه وقواه العقلية، أن يقف وسط هذه الأرض الخراب بعد منتصف الليل بساعة تقريبا في هذه الليلة المقمرة، عاريا تماما من ملابسه يقوم بأفعال هستيرية وينادي بأعلى صوته وهو يقفز داخل دائرة كبيرة صنعها على الرمال، يوجد على محيطها وداخلها وخارجها رموز وطلاسم، بينما يقبض بكلتا يديه على شمعتين، ويتلو تعاويذ وأناشيد شيطانية، أمام ذلك الإناء الذي يضعه أرضا وبداخله حبوب نباتية غريبة..

إن هذه طريقة فعالة لجلب الشيطان، أما على السبب فهو أن (عماد) صار يكره البشر، ولو أن كل شخص كره البشر فعل مثل (عماد) لما صار هناك موضع قدم لبشري واحد علي الأرض..

تصميم: محمد عيد

دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSEA